رواية

عين الفيجة والدرويش

المُهلّب مرهج

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2020

عين الفيجة والدرويش

رواية

المُهلَّب مرهج

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: عين الفيجة والدرويش

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: المهلب مرهج (نبذة)

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: الكاتب بنفسه

سنة النشر: 2020

الحالة: حصريا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 49

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2020

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

إهداء

إلى روحك يا إسراء غريب..

وإلى روح كل شخص قتل ظلماً في أي بقعة من بقاع الجهل والتخلف..

وأريد أن أقول عن نفسي أنني حقاً ناقص رجولة، ووقح.. لأنني كنت عاجزاً عن فعل أي شيء إلا كتابة مجرد رواية تشبه ما حدث لك..

المهلب مرهج

ملاحظات

قرية عين الفيجة قرية متخيلة تماما، والشخصيات في الرواية والقصة متخيلون تماما، ولكنهم يحاكون الواقع. وإن كان هناك تشابه فبمحض الصدفة لا غير.

لمن يخاف الحقيقة.. عليه أن لا يقرأ هذه الرواية.. فهنا لم أتمكن من الكذب.. ولم أتمكن من خداع عقل القارئ بأي وهم زائف.. وإن كنت تخشى الحقيقة فلا تقرأ...

الفصل الأول

كان على الجهل أن يأكل قرية عين الفيجة منذ سنوات، وكان من العجب أنه لم يفعل بعد. بتفكير تشوبه الشفقة، أدرك ياقوت ذلك كله، و عقله كجمر مشتعل على منقل شواء صدئ لم يعد أحد يستخدمه، يا لها من طرفة! تشبيه الأفكار في زمن كهذا برماد، تُرك دون أية فائدة: لا يستفاد منه إلا في وضع فحم النرجيلة في جوفه!

ومن عاد يتغذى على الأفكار في هذه الأيام؟

كان ياقوت يجلس تحت شجرة السنديان الكبيرة التي تقطن مع أخواتها على الطريق العام المؤدي إلى القرية. وكانت ظلال تلك الشجرة تلفح وجهه الناعم والجميل، الذي يبدو للناظر إليه، كياقوتة فعلاً، بل كماسة من مناجم أفريقيا: تحتاج لوقت طويل حتى يتمكن الإنسان من سبر أغوارها.

ياقوت لم يكن مثل شباب القرية، لم يكن قليل الفهم، ولا ينقصه أي شيء من نظرة شاعر إلى الحياة، نظرة شخص يعرف كيف يزن الأمور ويقلبها جيداً ويفكر فيها على مهل، ليستخرج، بسحر لا تدرك ماهيته، أفكار عديدة من مخيلة بسيطة، ومن مخيلة أخرى معقدة، ليدمجها مع بعضها البعض وتنتج عنها أفكار أخرى، يقول عنها أهل القرية في ما بعد أنها آراء زنديق.

لم تكن الزندقة تليق إلا بالمتمرد: أصبح يقال عن أي شخص يأتي بفكرة جديدة أنه زنديق، وأنه عدو للطبيعة البشرية، وأنه عدو للواقعية، وأنه لا يصلح لأن يكون رجلاً، أو امرأة، ربما كان أهل القرية سيقولون أيضاً عن ياقوت: أنه لا يدفن في مقابر المسلمين، وأنه لا يُصلّى عليه، وأنه لا تجوز عليه الرحمة، لمجرد أنه شخص يفكر.

على أية حال: لم يكن ياقوت يتضايق من هذه الأشياء، لكنه كان يتألم، وكان يدرك، مثل حنا مينه، أن الألم والمعاناة يصنعان الرجال، ويصنعان الإنسان. لهذا السبب الوجيه، وبشغف عارم، وأعين نصف مغمضة، أخذ ياقوت يتأمل زهور الأقحوان التي تتناثر على الطريق، وما زال يتفيأ بظل شجرة السنديان، كانت زهور الأقحوان عشقه، شغفه، فياقوت، بطبع الحال، كان يرى الجمال في أبسط الأشياء، ويحب أن يرى كل فتيات القرية يرقصن أمامه على أهازيج وألوان من الطرب سواء القديم أم الحديث، وأن يرى، بحس طرافة، مختار القرية بدل أن يكون سمساراً لرئيس المخفر، أن يكون فناناً أو كاتباً أو رساماً عبثياً مجنوناً مثل بيكاسو. لكن للأسف: فهذا الحلم صعب المنال.

بما أن الفراسة هي الحكم: فإن وجه ياقوت كان مستديراً، كوجه القمر، بل كقرص خبز محمص، وكان يتدرج في لون بشرته بين البياض والسمرة الخفيفة، بل إن اللون القمحي كان يطغى على بشرته، وكان فمه الصغير الناعم، ينم عن رجل يمتلك لساناً سليطاً، لكنه حقاني، لا يخاف في قول كلمة الحق لومة لائم، وكانت

له لحية خفيفة غير مشذبة لكنها متناسقة، مغرية لأي فتاة، وذقن جميلة خفيفة أيضاً: في كلتا الحالتين، حين يكون بلا لحية أو بلحية، بذقن أو بلا ذقن، فكان ياقوت يبدو وسيماً.

كانت قامته طويلة، وبرغم نحالته، فقد كان قوي البنية، بعضلات بارزة إلى حد ما، فهو لم يكن يحب أن يبدو مثل كديش، أو فدان، أو كالثور الذي عند العم أبو جابر.

كان ياقوت يرتدي دوماً عباءة بيضاء فضفاضة، وكان شعره طويل أسود يكاد يصل إلى أسفل رقبته، مرسلاً إلى الخلف والجوانب متروكاً على سليقته: فبطبعه، كان ياقوت يحب كل شيء كما هو، وأن يتقبل الأشياء بما هي عليه، حتى بلغ فيه الحد الاستغناء عن الحلاق، وقص شعره بيدي أمه الحنونتين، كان يساوي عنده في القيمة المعنوية كل حلاقي البلد الماهرين.

وكان ياقوت يلبس خاتماً رخيصاً، جميلاً، ذو ماسة (مزيفة) سوداء، على خنصر يده اليسرى.

إن بطالة الشباب في القرية، وفقر أنيسة، التي تتجول كشحاذة، وصراخ أبو جابر الدائم وهو يحرث حقول الفلاحين وصغار الكسبة في القرية، وجنون وسيم، وضحكات سهيل التي تخلو من حس الدعابة وتمتلئ بالفظاظة: كانت أغلب أجواء قرية عين الفيجة، التي تعد من أفقر قرى السويداء السورية.

إن الجو صحو، والشمس حارقة، لكنها لا تصل إلى ياقوت، ولكن النسيم عليل للغاية، أخذ ياقوت يفكر في نفسه أن الجو مناسب لكتابة قصيدة أو قراءة كتاب. في الحقيقة لقد كان هذا مكانه المفضل في لحظات نشوته، شجرة السنديان.

فكر ياقوت، بأعين شاخصة، في قرارة نفسه:

"يا لزهور الأقحوان الجميلة! والحب الجميل، والجمال في الوجود، وسحر الأشياء، وشغف اكتشاف ما لم يكتشف بعد من أسرار في النفس البشرية، وفضول معرفة كثير من الأمور"

وعدل من جلسته وكانت رجلاه تتشابكان على الأرض، وهو يحدق في زهور الأقحوان نفسها: التي تجاورها شقائق النعمان الحمراء، وزهور النرجس البيضاء.. وحقل أبو جابر المحروث سلفاً...

تابع ياقوت التفكير:

"كل شيء جميل.. حتى التراب فهو جميل.. والأرض فهي جميلة.. وأشجار الزيتون فهي جميلة.. والصخور التي تتجمع حول بعضها في غير انتظام.. أيضاً هي جميلة.. وهذا أجمل شيء: أن تكون الأشياء مبعثرة وغير منتظمة وفوضوية ولا تعبر عن شيء إطلاقاً... حتى التفاهة فهي جميلة...."

وحين وصل إلى مقطع التفاهة، فكر ياقوت بالروائي ميلان كونديرا وتذكر روايته "حفلة التفاهة" التي كانت تمجيداً لما قاله وفكر فيه ياقوت لتوه.

فأخذ ياقوت يضحك، وكان شعره يتطاير مع نسمات الهواء. وبعد لحظة استلقى على العشب الأخضر وتناول الكتاب الذي كان إلى جانبه وأخذ يكمل القراءة فيه، وكان الكتاب هو رواية "قصة موت معلن" لغابرييل غارسيا ماركيز. وسمع ياقوت صوت ديك يندمج بصوت ديك آخر، وبدا صوت الثاني أكثر قوة من الأول: بحيث يعبر عن فحولة الديك الثاني، وهناك أصوات عصافير تغرد بشكل غير منتظم، وهذا اللا انتظام كان الانتظام بعينه، ويمثل سحر الوجود الحقيقي.

الفصل الثاني

كعواء كلب، كانت كلمات رئيس المخفر أبو قاسم تحوم حول وجوه وآذان عناصره، خاصة لعنصره الوفي الشهم فارس، والعنصر الذي هو أكثر وفاء من سابقه جميل. لم يكن هؤلاء الثلاثة يختلفون عن بعضهم في أي شيء: كانت تقاسيم وجوههم غليظة، فالأغلظ كان وجه أبو قاسم، يتلوه في الغلاظة جميل، ثم فارس. لكن الأمر المهم هنا هو الفرق الكامن في غلاظتهم: فجميل وفارس كانا غليظان بالمعنى الغبي للكلمة، أي أنها غلاظة شخصان مغلوب على أمرهما من الواقع الأليم والمؤسف، يمكننا أن نقول أيضاً أنها غلاظة مسكينين، أما غلاظة أبو قاسم فكانت من النوع الذي يخترقه الدهاء، فيبدو أبو قاسم بصوته الرجولي الفخم، الرنان، المنمق، المفوه، مثل أفعى تطلق سماً من نوع آخر: نوع لا يمكن لأي روح أن تتقبله، خاصة إن كانت روح جميلة. حتى نُقسم أرواح البشر فهناك الروح الجميلة وهناك الروح القبيحة، هذا ما لم يكن جديداً عليكم، بل يبدو كسخف أو كلغو مبتذل مني. لكن الجديد عليكم أن تعرفوه: ما الذي يحدد نوع روح كل إنسان؟ لنفكر: هل الروح تكون جميلة إذا كان صاحبها ذو وجه جميل مثلاً؟ أم أن الأخلاق تحكم؟ أم أن مسألة الأرواح مسألة أذواق؟

إن جميل وفارس كانا واقفين مثل صنمين أمام كلمات رئيسهما، الذي أكمل كلماته بفم مفتوح وكرش كبير:

"يجب أن تعلموا أن خزينتنا فاضية... وأننا يجب أن نجد شغلاً جديداً.. أم أني غلطان؟"

فوقفا باستعداد أكثر، وزادت هيبة أبو قاسم، وكان ينتظر ردهما، فصرخ بقوة، وكاد فمه يبتلعهما:

"قولا شيئاً يا غبيان!"

فتردد جميل، وقال بعد لحظة صمت:

"يا سيدي.. أنت السيد وأنت الذي تعرف لا نحن"

فأومأ فارس برأسه موافقاً على كلمات جميل، وأخذ أبو قاسم يرمقهما بنظرات احتقار، واستصغار، كأنه ينظر إلى رسوم كريكاتورية متحركة. إن الإنسان سيكولوجياً ينظر إلى الأقل منه مرتبة، أو مالاً، أو عمراً، على أنه رسم كاريكاتوري قابل للسخرية والانتقاص في أية لحظة.

فرك أبو قاسم شاربيه الطويلين المعقوفين، كأنهما قرنا استشعار دبور أمريكي. وقال بصوت تشوبه الثقة العارمة بالنفس:

"لا حل إلا فطحل وجبل.. سآتي بهما حالاً"

وفكر للحظات وهو يحك ذقنه، ثم صرخ يأمر فارس وجميل بالذهاب وأن يأتيا بفطحل وجبل حالاً. فضربا التحية وخرجا لينفذا، بينما جلس أبو قاسم على كرسي المكتب، بفخر واعتزاز، واستمر بفرك شاربيه.

بعد فترة تعدت الربع ساعة وصل جميل وفارس وبصحبتهما فطحل وجبل الذين كانا أخوين وكانا باختصار زعران القرية. وحين وصلا، أخذا يرمقان أبو قاسم بنظرات حميمية، كأنهما صحبة معه، وهو أيضاً كان يشاركهم الحب والألفة: بشكل غريب جداً بالنسبة لعلاقة رئيس مخفر مع زعران. ولكنه في نفس الوقت ليس غريباً (وستعرفون السبب عما قريب).

صرخ أبو قاسم مرحباً بهما:

"يا أهلاً وسهلاً...يا أهلا وسهلاً بالشباب... شباب القرية.. بل زينة شباب القرية...."

فرفع فطحل وجبل رأسيهما في العلالي فخراً واعتزازاً، وكان كل منهما بقامة طويلة عريضة، وجذعيهما كجبلين، ورأسيهما كثعبانين، ويمتلك كل منهما فماً يأكل الحجارة براحة.

قال فطحل، وهو توأم جبل:

"بعد زمان يا أبو قاسم...."

فضحك أبو قاسم وقال:

"اجلسا.. اجلسا.... يا أهلاً وسهلاً...."

وحين جلسا، أمر أبو قاسم بكأسي شاي، لكنهما رفضا ذلك محتجان بأنهما مستعجلين لمعرفة طلب أبو قاسم منهما. فضحك أبو قاسم وقال ووجهه يغلي كأنه مقلاة بيض والزيت يتطاير منها:

"لقد أتيت بكما لمناقشة الخطة الجديدة...."

فضحكا، وتبادلا نظرات دهاء وكهن، وقال رئيس المخفر:

"الخطة الجديدة كالتالي: أنتم كلكم هنا تعرفون، تعرفون هذا الشيء جيداً: في قرية عين الفيجة وفي هذا الوقت بالذات تكون المناحل مليئة بالعسل... وقريتنا مشهورة بالعسل.. والعسل الطيب الذي لا يوجد مثيل له في كل القرى المجاورة.."

وقام أبو قاسم وصار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وأعين الجميع تلاحقه، وهو يضرب بعصاه السوداء الأرض، ويتكلم:

"وبما أن ذلك معروف... فما رأيكم بالتسلل إلى المناحل في الليل... يعني أنت يا فطحل وأنت يا جبل تذهبان إلى كل الأراضي وتجلبان لنا ما نريد....."

وصار أبو قاسم يضحك.. بنشوة من يريد الوصول إلى أي شيء بأية وسيلة.

فضحك فطحل وقال:

"والله أنت دولة يا أبو قاسم.. دولة.. ولا يخاف عليك.. وتفكر بعمق وتجد حل دوماً للأمور...."

فضحك أبو قاسم مجدداً، مستعيداً ذكريات عملياته السابقة.

وقال جبل بصوت رخيم مثل صوت أخيه التوأم تماما:

"نحن لها يا أبو قاسم... وإذا أردت سنعمل مثل المرة السابقة.. نهجم على كم واحد أيضاً ونحمّرله رأسه وعيونه... اهئ.. اهئ..."

وأخذ يقهقه، واشترك معه في القهقهة أبو قاسم وفارس وجميل وأخوه فطحل أيضاً، واعتمر الجو بأصوات السعادة والبهجة الكبيرة.

كان القمر وحده شاهداً على ما حدث، لكأن القمر يشبه الوجه، لغاية من غايات خالقه الوجودية، إنه يمتلك هذا الوجه السحري الجميل العذري، فقط ليرى به عمليات التهريب التي تحصل في الليل بإنكار أعين الشرطة لها، ولينقل هذا القمر إلى ربه كل ما يراه وما يحدث من سرقات ترتكب ضد الفقراء، الفقراء وحدهم، أجل فإن القمر خُلق من أجل الفقراء، والشمس كذلك، خُلقت من أجلهم... لا.. لا تقولوا أن الليل في المقابل خُلق للأشرار من الأغنياء، لا، بل لقد خُلق لهم القمر أيضاً،

ليكشفهم، في زمن قلت فيه الأقمار كما قل فيه الرجال. كشف النفوس سواء كانت فقيرة أم غنية، وفضحها أمام صفحة السماء.

كانت قرية عين الفيجة عند هذه الليلة نصف نائمة، فالأغلبية يسهرون حتى الصباح، لأن الجمال في السهر، وحب الفقير للحياة، وحب المفكر أيضاً لها: يكبر أثناء الليل وكل الناس نيام، لكن القرية ليس فيها مفكرين سوى ياقوت، وهذا يعني أنهم فقراء.

أخذت الضفادع تنق، والجداجد تُصفّر كأصوات قطارات تتشابك في بعضها، بينما تسلل فطحل وجبل إلى حقل من حقول القرية، ولم تستطع الدجاجات، ولا زيرهن الديك، ولا البقرة، معرفة ما يحدث والشعور به، ولم يكن هناك كلب، وبخبرة صادقة لعملهما، سرق فطحل وجبل جراراً كانت موضوعة بالقرب من المناحل والخلايا، ونظرا إلى بعضهما، وفتحا الجرار وتأكدا أن ما فيها عسل، ولحس جبل بإصبعه لحسة، فتلذذ بها، ثم أمّن على أخاه أنه عسل فعلاً، فابتسما، وأخذا الغنيمة وهربا.

الفصل الثالث

في الليل دوماً، ومنذ السابعة مساء، ومنذ أن وصل ياقوت إلى قرية عين الفيجة بخطة ترحاله، فهو يبسط على الأرض بساطاً مريحاً وخفيفاً، تحت شجرة السنديان هذه، وينام، مثل أي عاشق للزهد، والتمرد على الأشياء، وحب الطبيعة، وشغفه بأن يكون جزءاً من الموجودات، لا يتجزأ عنها.

مذ أن وصل ياقوت إلى قرية عين الفيجة، عرّف أهلها بنفسه مراراً أنه درويش رحال، يعشق حياة التنقل، والأسفار، وأنه شاعر صوفيّ يقع في حب كل شيء، ورغم ذلك فهو ضد أغلب عادات وتقاليد القرية، وموروثها الثقافي الذي يسميه بالموروث الضعيف، فذات يوم سأله مختار القرية أبو ظريف:

"يا ابني من أين أنت؟ وماذا تفعل هنا دون بيت لك؟"

فقال له ياقوت بابتسامة لا تخلو من دهاء وحب:

"إنني مجرد رحالة درويش.. يعشق حياة الزهد والحرمان.. ويحب أن يتجول في العالم ليرى خلق الله ووجهه.. ويتأمل الكون وسحره.. ولا أبالي بعدم وجود بيت لي في العراء.. فهناك كثير من الناس ليس لديهم بيت يأويهم... وأنا لا أريد أن أختلف عنهم"

وحينها ذم المختار شفتيه، وقال عاقداً حاجبيه:

"إذن... فمن المستحيل أن أزوجك من ابنتي زنوبة.. لأنني سأزوجها من مهندس أو طبيب أو على الأقل أستاذ محترم... أما متشردون مثلك!"

وضحك المختار ضحكة ساخرة. لم ينزعج ياقوت إطلاقاً، بل رفع رأسه ولكن باحترام كبير لنفسه، واعتزاز وعنفوان، وقال للمختار:

"أتعتقد أيها المختار أن الشهادة هي التي تصنع الإنسان؟ فكر جيداً: هل يعقل أن تكون ورقة، هي من تحدد قيمة كائن خلقه الله وباركه على خلقته؟"

فضحك المختار وقال:

"أنتم الرحالة والمتشردين مجانين.. أجل يا سيدي.. نعم، الشهادة تصنع بني آدم يا ابني، ليست ورقة فحسب بل هي تعب عمر وسنين، تنتهي بالتعلم وفخر الأب والأم بابنهم"

ابتسم ياقوت بدهاء، وقال:

"ومن قال أن المدرسة والجامعة تعطيان علماً حقيقياً؟ أتعتقد أن الكتب الفارغة من المضمون والتشويق تكون مفيدة؟ يا مختار، إنني أرى الشمس، وأحب الحياة، وأرى الجمال بأعين يشوبها الفضول، ومن دون الفضول لا يوجد علم ولا توجد معرفة، ومن دون حكاية مسلية أو سرد ممتع، أو طرفة، أو معادلة تشغل التفكير، فلا يوجد علم أساساً، بل إنه العكس تماما: إن من يحفظ كالببغاء المعادلات،

وينقش المعلومة المباشرة في عقله نقشاً دون تفكير، ولا يستطيع رفض أي فكرة والاختلاف مع أي فكرة فهو إنسان جاهل مخدوع، ويمكن لأي إنسان أن يضحك عليه.. وخبرته في الحياة تكون معدومة... فالخبرة والتعلم، أهم من الدراسة، والتفكير أهم من الحفظ، والشعور والإحساس أعمق من المنهجية"

وبعد لحظة صمت، كان المختار يطرق رأسه في الأرض وبدا محموماً من كلام ياقوت، وقال:

"أرى أن ضغطي سيرتفع... اذهب عنا أيها الرحال المجنون.. أنت ستخرّب عقول شباب الضيعة إن كنت هنا..."

وقال ياقوت مبتسماً:

"على أية حال أنا قلت رأيي"

ولم يبد على المختار أنه فهم شيئاً.

ذاكرة ياقوت عادت به الآن إلى هذه المحاورة الخفيفة التي كانت تبدو كأنها فقاعة، كأنها محاورة من طرف واحد، فهناك من يتكلم وهناك من يسمع فلا يفهم.

لقد أنهى ياقوت اليوم قراءة رواية "قصة موت معلن" لماركيز، وقد أدهشته قصة سنيتاغو نصار الذي قُتل باتهامه بجريمة شرف ربما لم يقم بها، وعبقرية الكاتب في مناقشة أحداث الجريمة، فقد ظهر أهل البلدة كلهم وكأنهم يريدون للجريمة أن تقع

فعلاً، فقد قتل أخوا الفتاة (التي اتهموا نصار بأنه اغتصبها) سنتياغو، وكان أهل القرية يستطيعون منعهما لكن الأمر الذي حدث أنهم لم يكلفوا نفسهم فعل أي شيء بل بمراقبة الجريمة وهي تحدث بملل، وبمراوغات ومناورات لمن حذروا من الحادثة، كأنهم يريدون حدوثها أصلاً!

على أية حال، فقد شعر ياقوت الآن بلطف الجو، رغم وجود البق الذي يأكل وجهه بين الحين والآخر.

وقد كان عند كل ليلة، يذهب إلى المقبرة في هذا الوقت، وهناك يرى الفتاة التي أحبها منذ وطئت قدماه أراضي عين الفيجة. فقام عن البساط، وجمع نفسه، وتثاءب، ثم ترك الكتاب والبساط وزاده على الأرض مكانه ثم توجه إلى مقبرة القرية .

كانت مريم جميلة للغاية بنظر ياقوت.. حسناء إذا رأى وجهها سقط ضحية له في ثوان، وذاب عشقاً في شفتيها الخمريتين، وشطحت مخيلته إلى سحر إيماءاتها التي تكون في كل مرة ذات مغزى عميق، هذا كله برغم أن شباب القرية لم يكونوا معجبين بها إلى هذا الحد، وكانوا يرون أن هناك من هو أجمل منها. لكن بالنسبة لشاب صوفي مثل ياقوت، فهو يفضل أولئك الفتيات اللواتي يشعرنك بأنوثتهن فعلاً: فلا يهتممن بسخافات الأمور كالغيرة من صديقاتهن على فستان أو قبلة من ولد من أولاد الجيران، والأنثى بنظر ياقوت هي ناضجة واعية تحب وتعرف كيف

تحب وكيف تضحي، وحين تتكلم تعرف كيف تتكلم، وحين تصمت تعرف كيف تصمت، ذكاؤها شعلة، وقلبها بحر، وعيناها سحر غامض، ككنز، كأعجوبة، كوطن لا حدود لأراضيه.

الأنثى، بنظر ياقوت، هي الجسد وهي الروح، هي الفكرة حين تتلاقح مع فكرة أخرى، لتنجب جمالاً روحياً جسدياً: هذا المزيج الذي يشبه اندماج آمون مع إيزيس، عند الفراعنة، كآلهة من ذلك العصر.

وقفت ريم أمام الكوخ الصغير الطيني، ذو الباب الخشبي المهترئ، وتحت مصباح الكاز الذي ينير هذه العتمة، وكانت تراقب بأعين حنونة، شغوفة، حالمة، يكتنفها فضول من يريد الكشف عن جوهرة... تراقب ياقوت القادم من بعيد بمشيته الظريفة والمهيوبة...

وحين وصل، عانقت عيناه عيناها، وهو يتأمل، بحنان آسر، خداها المتوردان.

قالت:

"تأخرت عليّ...."

فابتسم، ابتسامة مرهفة، وقال بصوت ناعم:

"لقد أسرتني رواية.. فلم أتمكن من تركها... أنهيتها وأتيت إليك..."

فابتسمت، وشعرها الأشقر الذهبي بجديلتيه مسترسل على جانبي رأسها، ولكن ثيابها كانت رثة بالية رمادية اللون، وذلك طبيعي بالنسبة لحارسة مقبرة، لأن والدها مرض منذ أسبوع فترك حراسة المقبرة وسمح لابنته ذات الطبع الجنوني، بعد إلحاحها، أن تكون هي الحارسة، لفترة من الوقت، وقد سمح بذلك رئيس البلدية.

ضحكت ضحكة قصيرة، وقالت:

"لا تعلم كم أحبك... وكم اشتقت إليك.. وإلى قصصك التي تحكيها لي كل ليلة..

وأفكارك الجميلة.. وقصائدك المليئة بالبهجة"

ضحك لها مظهراً أسنانه اللؤلؤية، فشاركته، واستلقى وإياها على أرض من الأعشاب الصغيرة، ولم يشاركهما الليلة تلك إلا قطة بيضاء وشقراء كانت عابرة سبيل، والقمر الذي كان في السماء، يبتسم وينم ثغره عن حنان كونيّ كأنه مرسل من عند الرب ليبارك الحب.

الفصل الرابع

لا شيء حولهما إلا كأسي شاي قرمزيتين، مثل أجفان مريم تماما.

نمّ ثغر ياقوت عن ابتسامة حنونة، وقال:

"لقد أتاني كشف اليوم يا مريم"

فانتاب مريم الفضول العارم، لتعرف، أي خبر، يحمله ياقوت، هذا الشاب الذي لم يكن مجرد شاعر ورحالة مثقف زاهد، بل كان من الناس الذين بارك لهم الله بصفات خصهم بها دون غيرهم من الخلق، بشكل لم يصدقه أهالي القرية حتى الآن، لكن مريم وحدها، صدقت ياقوت، فهل يكذِّب المُحب محبوبه؟

كانا مستلقيين على الأعشاب، ينظران في النجوم في السماء، وقلباهما ينصهران ببعضهما، كانصهار الحديد.

سألت مريم عشيقها:

"هات ما لديك يا ياقوتي"

ليبتسم ياقوت، ويغمض عينيه لوهلة، ثم يقول:

"يا مريم، يا محبوبتي، إنه كشف خطير هذه المرة، ولم أعتد على كشوف كهذه، لكن الله لا يغفل عن ظلم الظالمين..."

مريم:

"خير يا طيب"

أكمل ياقوت:

"لقد أتاني كشف بأن رئيس المخفر، وأعوانه، قاموا باعتداء ليلي اليوم على عدد من حقول القرية.. وأنهم سرقوا الكثير من جرار العسل التي دأب الفلاحون والنحالون على استخراجها بتعب جبينهم وتعب أكثر من عشرين ألف نحلة"

فشهقت مريم مصدومة بما أتى به حبيبها، وقالت:

"يا له من خبر! رئيس المخفر نفسه!"

وأكمل ياقوت:

"ويقول الخبر أن المختار أيضاً مشارك في هذه العملية"

مريم:

"يا لهم من أوغاد! هذا المختار ليس هيناً.. معبأ في ثيابه.. يا ما تحت السواهي دواهي يا ياقوت...."

فجلس ياقوت على الأرض متربعاً، ونظر بحنان إلى عيني مريم، وكانت عيناه تنمان عن حب كبير لفلاحي القرية ونحاليها، وكل الكادحين، والمتعبين، والمرهقين من أيام

تكسر الظهور، وتهد الحيل، وتعصف بالجبال فتنزلها أكواماً من التراب، وتستبد بأهل الكرم والجود رغم ما عليهم من تعاسة: كانت ملامح وجهه، بتقاطيع حادة، وزاوية كل عين من عينيه تشي باهتمام بالغ وعميق، وألم ينخر في العظام.

وضعت مريم يداها الحنونتان على وجهه، وأخذت تلاطفه، وتقول:

"ما بالك يا حبيبي؟"

ليقول لها، بأعين ما زال الحنان يشر منها:

"إني لحزين على الفلاحين يا مريم.. حزين.. ماذا سنفعل من أجلهم؟"

وصمتت مريم، وقال ياقوت:

"إن الساكت عن الحق شيطان أخرس..."

وعلمت مريم أنه ينوي معارضة رئيس المخفر والمختار، فقالت بصوت منفعل:

"إياك يا ياقوت.. إياك.. سيكذّبونك.. ويرمونك في السجن... ستنال عقاباً لا تستحقه... لا تقم بشيء لا تقدر عليه...."

فعادت الذاكرة بسرعة خاطفة بياقوت إلى تلك اللحظة.. حين قال له أبوه أن لا يسكت عن الحق، وأن لا يخشى في قول كلمة الحق لومة لائم، وأن يكون عازماً مصراً على تحقيق غايته النبيلة، فلمعت عيناه، وشعر، وضوء القمر ينقش ألوان كألوان الطيف على وجهه، بقوة غريبة، تقوده إلى الفعل.

وقال:

"أنت لا شأن لك يا مريم... إياك والتدخل من أجلي.. سأقول الحق يا مريم..."

ولم يكن بيدها إلا أن تصمت، فقد تعودت على طباعه، طباع شاب يعرف معنى الرجولة، ولا يخشى إلا الله، ولا يعرف معنى للذل والهوان، وإذا أراد فعل شيء فسيفعله.

فزمت شفتيها، ونظرت إليه في حب وإشفاق، نظرة جليلة.

كان الصبح قد تنفس، وبنفوس متعبة وعقول حائرة، وقف الفلاحون الذين سُرقت جرار عسلهم في الليلة الماضية، أمام المخفر في القرية، الذي كان بناء صغيراً يعتلي تلة خضراء تكللها الحشائش، وأمامه شجرتان واحدة منهما شجرة أرز والثانية شجرة سنديان، ولم يكن الفلاحون، إلا متذمرين ساخطين، على وجوههم نظرات التنديد والرغبة في الانتقام ممن سخر من تعبهم.

وقف جميل بالفلاحين وقال:

"يا جماعة... طولوا بالكم.. اهدأوا.. رئيس المخفر لديه شغل.. والآن..."

فقاطعه أبو جابر بصوت قوي رنان:

"يا حبيبي.. هذا ما كان ينقصنا.. نحنُ نُسرق ورئيس المخفر نائم... أدخلنا.. أدخلنا إليه يا جميل... أدخلنا إليه يا فارس.. لنا حق ونريده أن يعود..."

وصرخ عدد من الفلاحين وأصحاب الأراضي. ما كان بيد جميل وفارس إلا أن يدخلا إلى مكتب رئيس المخفر ويخبراه بأن الفلاحين مصرين على الشكوى، واضطرا لإيقاظه من نومه ففقد الشخير نكهته، وتدلى كرش رئيس المخفر أبو قاسم وهو يستيقظ ويجمع جسده ليقوم، وحين قام فرك جفنيه العريضين، المترهلين، وصرخ:

"أدخلوا هؤلاء الأغبياء...."

فأدخل فارس الفلاحين، وكانوا سبعة، من بينهم أبو جابر، وأبو كمال، وأبو قسورة.

صرخ أبو جابر الذي كان رجلاً في الخمسين له كلمة حق وصوت رنان وحركات رجل يحب المشاكل:

"يا أبو قاسم.. أتدري ما حدث البارحة وأنت تغط في النوم؟"

صرخ أبو قاسم:

"زن ألفاظك يا أبو جابر.. أنت تتكلم مع رئيس المخفر..."

"رئيس المخفر لا نختلف في ذلك.. لكن يا أبو قاسم نحن أناس عندنا شغل وأراضي وعمل ونحن نرهق أنفسنا من أجلنا ومن أجل أولادنا فلذات أكبادنا ونتفاجأ بأن لا أحد يحمينا ولا أحد يحرسنا... ما هي مهمتك إذن يا أبو قاسم وأنت هنا؟..."

حرك أبو قاسم رأسه متذمراً بدهاء، وقال:

"أخبروني ما القصة يا جماعة... عيب هذا الكلام ولا ترمونا بحجاركم... لكم حق عندي تأخذوه... لكن على مهلكم فهمونا القصة...."

قال أبو كمال ذو الأربعين عاماً، صاحب الوجه المستدير، الذي يملتك لساناً حكيماً موزوناً، وملامح وجه مهذبة، وصفات شخص صبور يحب الكلام وتبادل الحوار البناء:

"يا أبو قاسم.. لقد سرقت جرار عسلنا.. هذه الجرار التي ذقنا الويل نحن ومناحلنا لكي نصنعها... لقد سرقت البارحة في الليل ونحن نيام... وأتمنى منك أنك تشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقك... وعلى عاتق عناصرك.. هذا الأمر خطير علينا وعلى أولادنا... وإن كانت الشهامة تدب فيكم لاقولنا حل يا أبو قاسم مع هاللصوص.. لا تنسى أنهم سرقولنا دجاج وغنم المرة الماضية وأنتم ما لقيتم اللصوص لحد الآن..."

فتذمر أبو جابر بصوت عال، ليشاركه أيضاً أبو قسورة، وبقي أبو كمال وحده الذي ينتظر بفارغ الصبر حلاً مرضياً للمشكلة.

فهدّأ رئيس المخفر من أعصاب الحاضرين بإشارات عجيبة من يديه: سبحان الله كيف يستطيع الجلاد أن يتلاعب بأعصاب ضحاياه تارة ويهدئها تارة أخرى..

وقال، بصوت ناعم، يطمئن فيه الفلاحين:

"يا جماعة... وعداً مني إني سأبذل جهدي.. سأبذل جهدي في كشف اللصوص.. وأنتم اذهبوا إلى بيوتكم مرتاحين.."

صرخ أبو جابر:

"يا رجل.. أنت وعدتنا المرة الماضية كمان بنفس الشيء منذ أسبوع... وها هي السرقة تتكرر ولا أحد كشف اللصوص.. إلى متى يا أبو قاسم إلى متى؟"

وأتى صوت شاب ناعم لكنه ينم عن حسن نية وطيبة:

"وكيف سيكشف اللصوص واللصوص موجودون أمامه أصلا؟"

فاتجهت أنظار الجميع إلى صاحب الصوت، وكان هو ياقوت، واقفاً كملاك بعباءته الفضية، وشعره الأسود الطويل، ونظراته المتفرسة في وجوه الحاضرين، وكان يرمق رئيس المخفر بنظرات تحليل وكشف وتحقيق، لكأنه أتى ليحقق معه.

قال أبو قاسم بعد أن صدم واحمر وجهه:

"ماذا تقصد بكلامك أيها الشاب؟"

فقال ياقوت، بثقة:

"أقصد ما قصدت... إن السارق هو رئيس المخفر نفسه.. ومختار القرية.. وأعوانهم... هم الذين خططوا للعملية في الليل... وهذا كشف أتاني البارحة..."

فصرخ أبو قاسم منفعلاً:

"هذا كلام لا أقبله.. لو قاله شخص ناضج وعاقل لحبسته في الحال في السجن ولكن يبدو أنك لست عاقل.. قال كشف قال... مين يصدق هذه الخرافات والخزعبلات بعد... نحن جيل الموبايل والطيارة يا أستاذ... لم يعد هناك شيء اسمه كشف وتنجيم وكلام فاضي.. أنصحك تلزم لسانك..."

قال ياقوت مصراً:

"يبدو أنكم ستفعلون بي كما فعلوا سابقاً بزرقاء اليمامة... يا جماعة أنا لست منجم ولست مدعي.. أنا يأتيني كشف.. الكشف هو شيء من عند الله وليس من عندي...."

صرخ أبو قاسم:

"هذه أضغاث أحلام يا عزيزي.. قال كشف قال.. يعني كل من أتاه حلم أني أسرق القرية صار من حقه أن يأتي وصرخ بوجهي ويتهمني... هذا باطل يا أستاذ.. أتمنى أنك توزن ألفاظك يا ابني.. وأنا رجل بعمر أبوك وعيب هذا الكلام...."

قال أبو كمال:

"هذا صحيح... نحن لم نتهم رئيس المخفر ولا المختار بذلك... نحن نطالب بحقنا في مسك اللصوص فقط..."

وصرخ أبو جابر:

"يا ابني يا ياقوت... كافي ادعاء وكلام فاضي.. هذا حلم لا أكثر... وليس كشف... ارجع واتركنا نعرف نتكلم..."

وبدا على ياقوت اليأس من محاولة إقناعهم، فعقد حاجبيه، دون ندم، وانسحب من المجلس تاركاً إياهم يصرخون على بعضهم ويبعبعون.

الفصل الخامس

لم يكن يُقال عن عين الفيجة إلا أنها جنة من جنان الأرض، بأشجارها الخضراء، وحسناواتها السمراء. بجبليها الشامخين، ونبعها المعطاء: كان نبع الفيجة ينبع من أعلى الجبل الأول الذي أسماه أهل القرية منذ ميلادها وحتى الآن "الجبل الأشم" ثم ينزل كثعبان إلى سفح الجبل ليتفرع إلى حيتين صغيرتين... راوياً في ذلك أراضي فقراء القرية وأغنياءها على حد سواء. من كان الأغنياء؟ كانوا المختار ورئيس المخفر وأشخاص آخرون غير معروفون، ولكن الجميع كان يدعي الفقر، والموت من الجوع، حتى المختار ورئيس المخفر، واختلط الحابل بالنابل.

صباحاً كل يوم، وفي موسم الزيتون، يمتلئ الجبلان بالقاطفين والمعفرين والشغيلة، ومساء من كل يوم، وفي موسم التوت، تتجمع النساء والفتيات الجميلات، بسيقان عارية حنطية وسمراء، وأثواب شعبية بيضاء وصفراء وحمراء، كمظلات تتجه إلى الأسفل، ويبدأن في هرس التوت تحت أقدامهن وهن يرقصن فوقه، مترنمات، بشفاههن الوردية، بأهازيج قديمة وشعبية، منهن من كن بصوت نجوى كرم، ذو الطبقة الجبلية، ومنهن من كن بصوت ميادة بسيليس، ذو الطبقة الملائكية.

عندما خرج ياقوت من المخفر جاراً ذيول الخيبة: الخيبة من قول الحقيقة، والكلام في ما لا يُفهم ولا توجد أذن تسمعه، لقد وجد شيئاً أكثر خطورة مما رآه في هاذين اليومين المشؤمين.

لقد رأى ياقوت جبل وفطحل، كلاهما، بجسديهما المليئين بالعضلات، يعذبان قطة كبيرة ملونة أسفل التلة، وتحت شجرة زيتون مرمية على جانب الطريق.

فصرخ ياقوت بقوة:

"أنتما... جبل.. فطحل.. توقفا.. توقفا..."

وركض يلهث إليهما. كان فطحل قد ثبّت في كل أذن من أذني القطة حبلاً متيناً ربطها به، وكان يمسك بالحبل، وتتدلى القطة من أذنيها للأسفل وهي تعوي ككلب، من الألم والعذاب، بينما جبل كان يمسك بيده كرباج أسود ويضربها به وهو ينتشي.

صرخ جبل:

"آه... آه منك يا خبيثة...."

وتصرخ القطة، مذبوحة بوجعها.

ليصرخ ياقوت فيهما:

"ماذا تفعلان؟ يا ويل.. يا ويل.. ويل لكما من ربكما.. إنها قطة مسكينة... هل تفخران برجولتكما عليها؟"

وكان ياقوت قوي النبرة، واثق الوقفة، ويظهر كأنه سيهجم عليهما في الحال.

فوقفا ونظرا إليه نظرة استحقار وقال فطحل:

"يا أخي نحن هيك.. هذا مزاجنا ونحن أحرار.. قطة مسكينة ونريد تعذيبها... نحن هكذا نحب العذاب... أليس كذلك يا جبل؟ أخبره أنه غير معني بما نفعل"

ياقوت:

"غير معني؟ بل إنني معني وكل إنسان على وجه الأرض فهو معني بما يحصل الآن.... اتركاها في الحال... هيا اتركاها..."

وكانا قد استشاطا غضباً.. وظهر عليهما أنهما خرجا عن طورهما وأنهما يستعدان للهجوم على ياقوت، ولكن في هذه اللحظة بالذات، ظهر وجه ياقوت كما لم يظهر من قبل، فقد انقلب الحنان إلى قسوة، والنعومة إلى غلاظة، واحمرت عيناه كأنه سيبادرهما القتال، بل كأنه يدافع عن شرفه نفسه!

باختصار: لقد كان شكله مخيفاً لأي رجل، فتسمر جبل وفطحل مكانهما من الخوف، وتركا القطة، وركضا مبتعدين عنه، متخيلان، بأعين خائفة: أن هناك

وحشاً يقطن في داخل ياقوت تماماً مثلما يقطن فيه الشاب الناعم الظريف الحكيم الودود. لقد كان وجهاً لا يتمنى أحد أن يراه.

وقد أفلتت القطة، فأخذها ياقوت في حضنه، وصار يداعبها، لكنها كانت مستعجلة، خائفة، حائرة، وتبدو كأنها تبحث عن شيء باذلة جهدها في ذلك. ليكتشف ياقوت في النهاية أن لديها ثلاثة فراخ جميلة، لم تتجاوز بأعمارها الشهر الواحد: حيث تركها ياقوت تفلت من يده ولحق بها إلى حيث ذهبت.. فدخلت تحت كرمة عنب صغيرة جداً في زاوية في خب حقل زيتون، وحين نظر ياقوت في المكان، رأى فراخها التي كانت واحدة منها بيضاء وسوداء، والثانية شقراء، والثالثة ملونة بثلاثة ألوان مثل أمها: البرتقالي والأسود والأبيض، أي قطة كاليكو.

فابتسم ياقوت وقال:

"أنتن جائعات... حسن.. لكنّ ما تردن...."

وحمل نفسه إلى مريم.

جلس مختار القرية أبو ظريف على كرسي من كراسي مكتب رئيس المخفر.. وهو يسترخي بترو على الجلد الأسود المريح، وينظر بدهاء في عيني رئيس المخفر أبو قاسم. ليقابله الأخير: بنظرة مودة، وحب مصلحجي، وسعادة لحظية.

قال أبو ظريف:

"ما وصلتني حصتي بعد يا أبو قاسم"

وكان يبتسم، بدهاء مجدداً.

وبما أن الدهاء ينتشر بالعدوى، فقد قال رئيس المخفر، بدهاء، مجدداً خبث الجو:

"أكيد يا مختارنا.. أكيد.. اهئ.. اهئ.. حصتك محفوظة ومصانة..."

ويأخذ أبو قاسم صندوق من الأرض ويضعه على الطاولة، ويقول:

"هذا فيه ثلاث جرار عسل.. حلال زلال عليك مختارنا.."

فيبتسم أبو ظريف، ويقول بطمع:

"فقط ثلاث جرات... أهذه غلاوتي عندك يا أبو قاسم"

فيضحك أبو قاسم ويقول، بينما يجلس مجدداً، ويرفع رأسه:

"يا أبو ظريف يا حبيبي.. هذه هي الكمية الموجودة.. صدقني ما بخلت عليك.. كل الذي حصلنا عليه عشر جرات عسل"

فقال أبو ظريف:

"هذا يعني أنهم عشرين جرة..."

أبو قاسم:

"الله يسامحك... دع الثقة بيننا يا أبو ظريف.. ليست حلوة منك..."

فتنهد أبو ظريف، موافقاً بالقسمة.

قد تسألوني لماذا يتعامل رئيس المخفر مع المختار وما فائدته من ذلك، إن رئيس المخفر بحاجة دوماً لشخص ينشر إيجابياته بين أهل القرية، متغاضياً عن أي سيئة، وذلك بقصد حبك العمليات وتضليل الناس عن سببها، فإن المختار مكلف بتحسين سمعة رئيس المخفر في مجالسه في كل مرة، ذاكراً فضائله، وما قدمه للقرية من خدمة بوفاء وإخلاص، ومعارك مع الأفاعي والضباع والكلاب المسعورة، ليغض المختار في ذلك أنظار أهل القرية عن أي جريمة سرقة تحدث، وكانت هذه السرقات تحصل كل شهر أو شهرين مرة، حتى لا يكشف الأمر، أما هذا الشهر فقد قاموا بعمليتين في أسبوعين متتاليين، خارقين في ذلك القاعدة.

قال أبو قاسم:

"كالعادة.. أهل القرية يشتكون ويطلبون أن نمسك اللصوص يا أبو ظريف.."

ابتسم أبو ظريف وقال بعد تفكير مسترسل لثوان، وهو يحك ذقنه:

"برأيي يا أبو قاسم... أرسل أحد عناصرك إلى الجبل ودعه يقتل ضبعاً... أو كلب متشرد.. وعليك أن تأتي بالضبع وتريه لأهل القرية وتقول لهم بالحرف الواحد: أن

هذا الضبع كان سيقتل دجاجات أبو كمال في الليل، وكان سينتقل إلى حقل أبو جابر، وأنك أنت بشهامتك وقوتك وقوة عناصرك، قتلت الضبع وحميت أراضيهم من عدوان كان قائماً ولا شك"

فابتسم أبو قاسم، ثم ضحك بنشوة، ورأسه يتحرك ويرقص في الهواء، واحمر وقال:

"يا لك من داهية يا أبو ظريف... والله أنك جبتها..."

ابتسم أبو ظريف، بعنفوان، وفخر، وقال:

"وأنت أيضاً كهين يا أبو قاسم.. دولة ما شاء الله عليك..."

فينادي أبو قاسم عناصره:

" يا جميل.. يا فارس... يا زفت.. يا طبل..."

فيضحك المختار ويقهقه، مستلذاً بألفاظ رئيس المخفر ونهفاته.

فيأتي جميل وإلى جانبه فارس، ويضربان التحية، ويأمرهما أبو قاسم:

"تذهبان إلى الجبل وتصطادان ضبع أو جقل أو كلب... وتجلبانه إلى هنا ميت أو حيّ"

فينظر فارس وجميل في عيني بعضهما حيرة، ويقول فارس:

"سيدي من أين سنأتي لك بضبـ.."

يصرخ أبو قاسم:

"اخرس العمى ضربك.. تناقش رئيسك.. انقلع أنت وهو في الحال وأتيا بالضبع... فوراً...."

فيضربان تحية، متذمران بشكل خفيف، ويخرجان للتنفيذ.

فيضحك أبو ظريف، ويقابله أبو قاسم بضحكة أخرى منتشية إلى أقصى حد: بحيث كان يمكن لملامح وجهه أن تخرج وتأكل كل ما حولها من شدة القهقهة والتأثر والانفعال.

وقال أبو ظريف:

"بالتأكيد ستعطيني الجرة الرابعة الآن...."

الفصل السادس

وصلت مريم برفقة ياقوت إلى الكرمة الصغيرة حيث القطة وفراخها، بعد أن أخبرها ياقوت بأنها جائعة وأن فراخها أجوع منها، ولا بد للقطة المرضعة من طعام فيه كربوهيدرات (طاقة) لكي تستطيع احتمال التعب الناجم عن إرهاقها من الإرضاع ودر الحليب من أثدائها الوردية. أخبر ياقوت مريم في الطريق أن القطط في آخر الحمل تصبح أثداؤها وردية وعليها نقاط سوداء، وحين تبدأ الولادة فهي تستمر لأربع وعشرين ساعة متواصلة، وقد تلد القطة فرخاً ثم تستريح لساعات لتكمل ولادة الفراخ الباقية. كانت كلمات ياقوت مفعمة بالشغف بحياة القطط، وكانت مريم تضحك في نهاية كل معلومة يقولها لها، فتظهر أسنانها اللؤلؤية المكنوزة خلف شفتيها الرمانيتين.

لكن، الصدمة كانت موجعة للغاية، أكثر مما تصورا.

لقد رأى ياقوت، ورأت مريم، القطة مذبوحة ورأسها مقطوع وملقى لوحده في جهة، وجسدها في جهة أخرى، وفراخها أيضاً مقتولة وكأنها مدهوسة بحذاء أو جزمة أو خف. صرخت مريم بعد أن تجعدت ملامح وجهها لتنم عن ألم دفين، وركع ياقوت على الأرض، وهو يحدق في المشهد الذي لم يرد أن يراه في حياته كلها: إنها القسوة البشرية.

خيط من الدم طويل يصل بين الفراخ وبين أمهم على الأرض، مكوناً قلب حب في أرض قاحلة ليس فيها حب، ولا طعام، ولا رحمة إنسانية.

سالت دمعة من عيني مريم، ودمعة أخرى من عيني ياقوت، وقال ياقوت بصوت متشنج:

"فلترقدي في سلام يا أم.. فلترقدوا في سلام يا أطفال.. إن الرحمة الإلهية في الأعلى خير لكم..."

وبعد لحظات قليلة، حفر حفرة كبيرة ودفن فيها القطة مع فراخها، وصلى هو ومريم، صلاة حنونة، ودعا في قلبيهما أن تكون الجنة مأوى وملاذ القطة وأطفالها.

وحدق ياقوت بأعين شاخصة، مشفقة، في وجه مريم، وكأنه ينظر في الفراغ، وقال:

"إنهما فطحل وجبل... متأكد... إنها متوحشان..."

لتضع مريم يداها على كتفه تواسيه. وكانت الشمس في كبد السماء تحرق وجهيهما الحنطيين، والعرق بدأ يتصبب من جبين ياقوت، الذي كان أسرع بجسمه من مريم في إفراز العرق.

قالت مريم:

"هيا لنعد إلى المقبرة..."

فقال ياقوت:

"إن الحياة نفسها مقبرة للضمائر، والنفوس الأبية، ومقهى دعارة كبير للرذائل، والفحولة الوحشية البشرية"

صرخ المختار في زوجته وهي تغسل الثياب بالغسالة في باحة المنزل:

"يا درة.. هل أطعمتي الدجاجات؟"

فنظرت درة، هذه المرأة السمينة، ذات الشعر المسرح تسريحة ذيل الحصان، والوجه البرتقالي الكبير، إلى زوجها، نظرة نكدية، وقالت:

"أجل.. أطعمتهم..."

فقال لها وهو مكشر عن أنيابه:

"أي ولماذا تتكلمين من خارج منافسك؟"

فردت بصوت نكدي أكثر:

"وهل تراني فاضية لأشغالك السخيفة يا أبو ظريف؟ الدجاجات لك والغسيل لي، اشعر بامرأتك"

فأخذ أبو ظريف ينظر إليها بازدراء، وهو يسبّح بمسبحته ذات الكرات الحمراء الكبيرة، التي أخذت شكل حبوب بازلاء.

بالعودة لحياة المختار الماضية، فإنه يتذكر الآن، وهو يحدق في المسطبة الكامنة خلف دغل من حقله، وعيناه تلتمعان بأسى، تلك اللحظات القاسية من حياته حين كان والده يجلده بحزامه القوي كلما عاد أبو ظريف إلى المنزل وهو لم يكسب شيئاً من المال، وكلما كمشه يحادث إحدى فتيات القرية، وكلما رآه جالساً في البيت بلا عمل، وكلما رسب في دروسه، حتى أن الأمر وصل بأبيه إلى درجة منعه فيها ذات يوم من الدخول إلى البيت، وبقي أبو ظريف أسبوعاً ملحوشاً في الطريق، تسابقه الكلاب والقطط والخفافيش. وذات يوم آخر، كان والده قد أوكل إليه مهمة سلخ جلد خروف، ولم يستطع جلده بطريقة مناسبة، فصفعه والده صفعة كالمخباط، أمام أعمامه، فتورم خده مثل حبة طماطم، وترك المكان هارباً إلى هذه المسطبة نفسها (التي يحدق بها أبو ظريف الآن وهو يراجع ذكرياته)، وهناك بكى حتى تشقق وجهه. منذ تلك الأيام، وحتى الآن، اختلفت أمور كثيرة، وصار أبو ظريف مختاراً، لكنه، تمنى أن ينجب ولداً واحداً، وللأسف، ما كان القدر إلى جانبه يوماً، لأنه اكتشف بعد زواجه من درة، أنه عقيم لا ينجب، فبكى بحرقة على ظريف الذي لن يأتي إلى الحياة، ولم يسمح لامرأته بعد، بذكر أي شيء عن رغبتها في تركه أو طلاقه. أما ابنته زنوبة فهي ليست ابنة من صلبه: في الحقيقة إن زوجته درة تزوجت مرة أخرى قبل أن تتزوج به وأنجبت بنتاً هي زنوبة، ثم حدثت مشاكل

بين المرأة وزوجها إذ أنه كان سكيراً يلعب قمار كثيراً ولا يعمل في شيء ويعيشهم في قلة وعوز فادح، ولم تستطع المرأة تحمله وطالبته بالطلاق بعد مشاكل ومناوشات ومشاجرات عديدة، فطلقها وتركها هي وابنتها، فتزوج المختار بدرة متبنياً زنوبة كابنته، وهذا كان الأمل الوحيد والأخير في أن يكون له أحد يناديه ابنتي. لم يكن المختار يعلم بأنه أمله الوحيد، فهو كان يظن أنه قادر على الإنجاب، وبعد سنوات خمس، أدرك عوزه، وأنه عقيم، متلقياً استنتاجات الأطباء الذين عاينوه وفحصوه، وبالتأكيد فمن غير الممكن اتهام زوجته بالعقم: فهي أنجبت زنوبة على أية حال.

المهم: لقد فقد المختار أمله بإنجاب فحل من صلبه.

يا لها من مرض! الذاكرة اللعينة، التي تقود الإنسان إلى ماض لا يريده، وكأن الإنسان لعبة بيدها، وكأن الإنسان خلق فقط ليتحمل آلاماً لا تستطيع الجبال نفسها حتى تحملها.

لم يكن الحنين ما أعاد الذكريات، ولا الشوق إلى ماض ميت، ولا رغبة في استرجاع حياة، بل كان الشعور بالنقص هو ما أعادها.

جلس أبو ظريف على مقعد خشبي، وراح يتأمل، بأعين ذهبية اللمعان، أشجار التوت، وأشجار الخوخ، وأشجار الدراق، التي تكسو أرضه الكبيرة، كأنها وشاح ملون.

دخل ياقوت بصحبة مريم، إلى عرين رئيس المخفر، وكان أبو قاسم يأكل من صحن فيه قطعة من صدر الدجاج مسلوقة مع الثوم، وكان ينهال على الطعام بيديه الاثنتين، ويلحس الزفر من على أصابع يديه بلسانه ثم يمص فمه.

رحب أبو قاسم بهما قائلاً:

"أهلاً.. حلت البركة.. ما شاء الله.. تليقان لبعضكما أجمل عروسين..."

ولكن عيناه لم تنما عن أي احترام، بل عن شيء يشبه الحسد.

ياقوت:

"السلام عليكم يا سيد أبو قاسم"

فقال أبو قاسم:

"وعليك السلام... خير يا طير..."

ياقوت:

"جئنا لنشتكي.."

فعدل رئيس المخفر من مجلسه، وبدا عليه الاهتمام، وترك الخبز من يده ونظر إلى ياقوت وسأله:

"شكوى... هات ما عندك..."

فقال ياقوت:

"لقد قُتلت قطة وفراخها بدون ذنب عند كرمة صغيرة.. في حقل السيد أبو كمال..."

وهنا، ظهرت ملامح السخرية على وجه رئيس المخفر، وتابع الأكل، لكن ياقوت تابع كلماته بثقة:

"أنا لا أشك في السيد أبو كمال أبدا.. بل في فطحل وجبل لأني رأيتهما يعذبانها... وأعتقد أنهما انتقما مني لأني دافعت عنها... ولم يأبيا إلا أن يقتلاها"

وحدق أبو قاسم خارجاً عن طوره في عيني ياقوت باحتقار شديد:

"يا ابني افهم.. وعي ما حولك.. يا ابني كل القرية مصابة بالجنون بسبب اللصوص الذين يهجمون عليها... والناس بفقرها لا تأكل... وأنا بفقري لا آكل..."

وغمس أبو قاسم الخبزة التي تكور فيها اللحم في الزيت والثوم، وأدخلها في فمه ولاكها بسعادة، وأكمل:

"وأنت مهتم بقطة وفراخها وبطيخ وكلام فارغ... اذهب يا ابني اذهب الله معك.. نحن هنا مخفر ولسنا محمية حقوق حيوان...."

فنظرت مريم في عيني ياقوت مشفقة، وكان ياقوت قد أشاح بنظره عن أبو قاسم، غير قادر على التحمل، وشعر بفقدان إحساس هذا الرجل وبأنه كتلة ميتة لا تتحرك إلا من أجل المال والطعام والنوم والتكاثر.

صفن ياقوت في الفراغ، وقال بصوت شاحب:

"إنه الأسف على القلوب التي لم تعد ترى النور، والعقول التي لم تعد تكشف وجه الحق، وزمن قل فيه الرجال"

فنظر أبو قاسم مغتاظاً إليه، وقال بنبرة قوية:

"اسمع.. كلمة ثانية وأدكك في السجن.. السجن فاضي ومشتاق لأي أحد.. وعصا فارس يلهف قلبها على الضرب"

فقالت مريم وهي تضع يدها على كتف ياقوت:

"هيا يا ياقوت.. هيا نذهب.. أنت تتكلم مع من لا يريد أن يفهم..."

ثم خرجا من عرين المخفر حزينين، وكان أبو قاسم قد تنهد بسخرية، وأكمل على آخر ما في صدر الدجاج، ولحس إبهامه بلسانه.

الفصل السابع

صباحاً في اليوم التالي.. كان المختار قد جمع في مضافته أعضاء المخترة أبو جابر وأبو كمال وأبو قسورة.. وحدثهم بشغف كبير عن العملية البطولية التي قام بها رئيس المخفر ورجاله البارحة.. وكانت يدا المختار وهو يتكلم تتحركان بطلاقة في السماء.. وعيناه تتنقلان بين الحضور كأعين قط حذر.. وفي نفس الوقت كأعين دجال. ولسانه لم يترك كلمة واحدة تمدح رئيس المخفر إلا وقالها. سابقاً، في الليلة الماضية، أمر رئيس المخفر فارس وجميل بقتل ضبع ففعلا، وكان ضبعاً كبيراً بلون أبيض، ثم رموا الضبع أمام الشارع الذي يؤدي إلى حقل السيد أبو كمال، ثم أطلق فارس هناك طلقتان في الهواء، وعوى جميل بمكبر الصوت مقلداً صوت ضبع يموت وينازع، بينما رئيس المخفر كان يضحك مقهقهاً، منتصراً في عمليته التي لا تخلو من الدهاء، وكما نسميه شعبياً "العكرتة".

واليوم، في مجلس المخترة، ومضافة المختار، كان الحديث بطولياً، حماسياً، نضالياً، وحين تسمع المختار أبو ظريف وهو يتكلم تشعر وكأنه مؤلف كتب قومية يتحدث، بلسان مفوه، وأعين فاجرة، عن حب الوطن والإخلاص، ولكن الوطن المعني لم يكن سورية الآن، بل كان رئيس المخفر..

وهكذا، فلم تبق عبارة أدبية منثورة، ولا بيت شعر، ولا كلمة مديح، إلا وقيلت بحق إنجاز رئيس المخفر.

فقال أبو جابر بلسان رجل فحل:

"عاشت الرجال.. عاشت.. فعلاً رئيس المخفر هذا ورجاله لا يخلون من حس الشهامة والرجولة.. لا أعرف ماذا كان سيحصل لدجاجاتي البارحة لولا هذا الفعل البطولي المشرف.. الله محيي البطن الذي حمل أبو قاسم وعناصره..."

فصرخ أبو قسورة:

"الله محيي البطن الذي حمله"

وأما أبو كمال، الذي كان في تفكيره بعيداً عن الفذلكة والمراجل، فقد اكتفى بالقول:

"بارك الله برئيس المخفر ورجاله.."

وبعد هذا الحادث: لم يجرؤ أحد أن يقول شيئاً عن اللصوص، وأخذ المختار يرمق أعضاء المخترة واحداً واحداً، بنظرات ألفة متكلفة، كأنه يرمي إلى القول أن رئيس المخفر لا يقصر في شيء من أجل القرية، وبهذا الشكل، فقد سكتت الألسن عن قول أي شيء يخص السرقات، وما عاد الواحد من أهل القرية بعد الحادث يجرؤ أن يتهم رئيس المخفر ورجاله بالتقصير، متناسين غافلين تماماً، عما حدث من سرقة لجرار العسل في المرة الماضية.

وقد وصلت هذه الأخبار إلى آذان ياقوت ومريم، اللذين جلسا، هناك في المقبرة، في حقل الحشائش، وفي خيمة صغيرة نصباها هناك لاتقاء حر الشمس، وقال ياقوت معلقاً على الحدث:

"إني أدرك خبث المختار ورئيس المخفر.. ما هذه إلا عملية تضليلية.. لكي يقنعوا أهل القرية بأنهم يحمونها فعلاً... ويغضون أنظارهم عن السرقات واللصوص"

وتنهدت مريم وقالت، بصوتها الأنثوي الناعم:

"حاميها ليس راعيها.. بل حراميها"

تخرج ياقوت من كلية الآداب، بمعدل جيد، بعد أن رسب سنة واحدة، وبعد أن أقنع الكثير من الدكاترة والطلاب، في العديد من الأحاديث في القاعات والمدرجات ومقاطعات يقاطع بها الدكاترة والأساتذة والمعيدين في محاضراتهم، بأن الدراسة لا تمثل أي شيء، ولا تعني أي شيء بالنسبة للإنسان، وأن العلم والأدب والفن وتقدير الجمال وحب الوجود، وإدراك العظمة في كل التفاصيل الصغيرة، والشغف بالأشياء التي تملك روحاً: كل ذلك خير من الدراسة.

ليتلقى الكثير من الانتقادات والحملات الحاقدة الشعواء، وقد قال عنه أحد الدكاترة، وكان ذو كرش منفوخ كبرميل، ورأس مدورة، وذقن مدبب، وملامح

كملامح ذئب شرس "أنت يا ياقوت مثل أمريكا تتكلم كثيراً وتكذب كثيراً وتخدع أي شخص بكلمات بسيطة"

وحينها عج المدرج بالضحكات، ولم يكن ياقوت منزعجاً من كلمات الدكتور الذي ظن أنه بهذا الفعل يذم ياقوت، ولم يعلم أنه يمدحه، فإن الكلمات البسيطة المأخوذة من الواقع، هي ما يجب أن يقال فعلاً، وهي التي تمثل حقيقة كل شيء، وأي كلمة تعبر عن انفعال أو غضب أو انزعاج، فهي الكلمة الأصلية، الطفولية، المرحة، التي تمثل أروع ما يمكن أن يقال في أي زمن، وأثمن ما تنطق به الألسنة.

برغم ذلك كله، كان ياقوت محبوباً بين زملائه، وكانت الفتيات، وخاصة الثرثارات، يفضلن الكلام معه كثيراً، واصطحابه في الكافيتريا، والمكتبة، والمقاعد في الحدائق، والتنقل معه من كلية إلى أخرى، وأما زملاءه من الشباب فكانوا يحسدونه على شخصيته، وفي نفس الوقت، فلم يكونوا يستطيعون إلا إظهار المحبة، والألفة والأخوة، لكن المواقف الصغيرة هي التي كانت تبين الحب من الكراهية. ونعني بالمواقف الصغيرة: مواقف الاستفزاز، والكراهية الصامتة، والرغبة في أن يظهروا لياقوت أنه لا يفهم، وأنه غير واع، ولكن ليس بشكل مباشر، وإنما عن طريق التلميحات واللا مباشرة، والكلام من تحت الكرسي.

فذات يوم قال له صديق عزيز:

"ياقوت.. أنت تظن أن كل الناس غلط وأنت الصح!"

وكانت هذه الكلمات، نتيجة حوار دار بينهما عن الطائفية، فكان ياقوت يقف ضد الطائفية ويصف الطائفيين بأنهم أشخاص ليس لديهم عقل، وأن لا فائدة من شخص طائفي في عصر التكنولوجيا والوصول إلى القمر، واختراع هواتف تعمل بالبصمة، وذواكر رام أكثر من 512 غيغا بايت، وإصدارات عديدة من أنظمة الآندرويد. وبدا على صديقه العزيز التعصب الطائفي، وقد استفزه كره ياقوت للطائفية، فأخذ يناقشه، وكأنه يلمح إلى أن الطائفية سنة الحياة، وقال له:

"لا بد للإنسان من أصل يعود إليه"

فأجابه ياقوت:

"هذا أكيد.. ولكن ليس إنكار أصل إنسان آخر من أجل أصلنا.."

فأجابه صديقه العزيز:

"ولا بد من حمل راية العلم والدين والإيمان وسلك أي طريق من أجل هذه القضية.. فالقضية أهم شيء.. والعلم يأتي بالسيف قبل القلم"

فهز ياقوت رأسه معترضاً وقال:

"السيف شرد الملايين ممن لا يستحقون إلا كل خير.. وقتل الآلاف.. وهجر عشرات الآلاف.. ومحى حضارات عن بكرة أبيها.. لم يعد هناك عصر سيف.. ومن يستخدم

السيف سيفنى.. فالامبراطورية والدكتاتورية نهايتهما إلى الزوال والاضمحلال.. هتلر نفسه لم يكن من الخالدين"

فاعترض صديقه العزيز:

"لا.. القوة هي كل شيء.. والقوي هو الذكي.. هتلر شخص عظيم.. ومن النادر أن ينجب العالم شخص مثله.."

اعترض ياقوت:

"أجل.. إنكم تعتبرون من يسرق رغيف الخبز مجرم وزنديق.. أما من يقتل الملايين فهو بطل عظيم عبقري..."

فقال صديقه العزيز وهو يخبط الطاولة بقبضة يده:

"لا يوجد شيء يدعى فقير.. هناك غبي وهناك ذكي.. والذكي من يصل إلى ما يريد بأي وسيلة.. وحلال على الشاطر..."

ابتسم ياقوت مشفقاً، وقال:

"هذا نفاق"

ويبدو، أنه بعد هذه المحادثة الشيقة، انتهت الصداقة العزيزة ، وذهب كل منهما في حال سبيله، وصار الصديق العزيز شخصاً مجهولاً، كأنه لم يعرف ياقوت يوماً،

وكان ينظر إليه نظرات استحقار دائمة، مهملاً إياه، متناسياً، كل ما دار بينهما من أحاديث وكل ما كان بينهما من عشرة.

ما علينا: إن ياقوت، شخص متمرد على أية حال، ولا بد للمتمرد أن يأكل نصيبه من الألم، وبعد سنوات عديدة، أدرك ياقوت بأعين نافذة البصيرة، أن الألم يصنع الرجال، وأن الألم نواة تصهر القلب والروح وتغذيهما وتهذبهما، وأنه لا بد لكل صاحب ضمير ونفس أصيلة أن يتعب ويبكي ويحترق ويموت ألف مرة من الداخل، ثم يعيش ألف مرة، وأن يكتب الكثير، ويقرأ الكثير، وأن يفرح جداً ويحزن جداً، وأن يصادق ويفارق، وأن يحبه أناس ويكرهه آخرون، وأن يوجد من يتمنى له حتى الموت بأبشع وسيلة، فهكذا كان الحال بسقراط، والحال بعلي شريعتي، والحال بكثيرين من أمثالهما.

ياقوت الآن، وهو جالس يشرب القهوة، أخذ يتذكر، بأعين يشوبها التفكير، مقولة علي شريعتي:

"من يريد أن يكتب من أجل الإنسان.. لا بد له من أن يتخلى عن حياته"

وكانت قهوة مريم، مثل عينيها، ومثل قلبها الدافئ، ومثل عقلها الذي كان دوماً وطناً له، كانت قهوة وسط، تختزل الحياة في أبهى صورها.

أما مريم فكانت كياقوتة حمراء، لا يُصوّر سحرها الغامض.

هذا لأن تصوير، أو تخيل، أو وصف أنثى مثلها صعب بمقدار صعوبة وصف شيء خالد، إن مريم لم تكن خالدة على الإطلاق بالمعنى الجسدي، وحتى الروحي، بل كانت خالدة كفكرة. يمكنك أن تتخيل سحر أنثى تقول أي شيء تريد، عكس أي أنثى أخرى، بشفاه لا تخشى قول الحقيقة، ولسان سليط، رغم ذلك فهو يحمل من التهذيب أطناناً. ربما ما كان ياقوت ومريم ليتفقا إلا لأنهما يحملان الشخصية الساحرة نفسها: تلك الشخصية التي تشبه شخصية أبو حيان التوحيدي، هذا الرجل من تاريخ المسلمين، الذي أهدر حقه من المؤرخين العرب، ومجده المفكرون الانجليز.

أبو حيان، شأنه شأن بطلينا ياقوت ومريم، كان يقول أي كلمة فيها نقد، لأي إنسان يريد، ومن كان لا يعجبه يقول له أنه لا يعجبه، وببساطة، شخصية لا يعرف النفاق إلى قلبها مطرحاً، وما في جوفها يُطرح منها على الملأ، وكان أبو حيان يملأ مجالسه بالصراخ، ويحب التعبير بكلمات بسيطة، تنبع من القلب، يفهمها العامي والسيد على حد سواء، وهذه الشخصية هي أجمل شخصية يمكن أن تنجبها البشرية.

لم يكن ياقوت يختلف في شيء عن أبو حيان، ولا مريم أيضاً: سوى باختلاف العصر الذي هم فيه.

الآن، وفي سحر شرب القهوة، التي هي مشروب العقل، كانا يتبادلان أطراف الحديث، وعصافير دوري تزقزق هنا وهناك، وطير أبو الحن يقفز على أغصان شجيرة قريبة، شجيرة حشائش، وكانت المقبرة مملوءة بأشجار السنديان وهناك أرض فيها المقابر خالية من الأشجار، وأمامها تماماً على الأرض، فرشت مريم سجادة، وراءها خيمة صغيرة. وكان ياقوت ومريم يقضيان أغلب النهار هناك أو عند شجرة السنديان أول طريق القرية أو عند مغارة الجبل الأشم، التي يزورانها بين الفينة والأخرى.

جلسة مريم، مشابهة تماما لجلسة ياقوت: التربع على الأرض، والنظر في بعضهما مسترسلين في ذلك، كأن كلاً منهما يسبر أعماق الآخر، حتى بالنظرات، حتى بالصمت نفسه، فالصديق ليس الذي يشاركك فرحك، بل الذي يشارك صمتك وألمك بوفاء.

قال ياقوت، بلسان فصيح:

"كان أبو حيان يا مريم.. مثله مثل سقراط في الطبع.. فلم يكن يخشى قول شيء في باله.. وكان يستخدم كل لفظ بسيط.. ليفهمه الجميع.. حتى الطفل إذا قلتي له شيئاً من كتابات أبو حيان كان سيفهمه.. وكان أبو حيان بلا صديق.. وألف كتاباً أسماه الصداقة والصديق بين فيه رأيه بالصداقة.. وبين وحدته وكم كان يشتهي روحاً تشاركه ألمه وعقلاً يشاركه فكره.. ولم يجد.. مكرراً في ذلك إحساس علي بن

أبي طالب بالوحدة الموحشة، الذي قال وصوته تأن له السموات والجبال: ما ترك الحق لي من صاحب"

شعرت مريم بقشعريرة، وكان كلام ياقوت هذا يخترق روحها، فيذوب هناك، في داخلها. وقالت:

"كم إني سعيدة وفخورة بك يا حبيبي! لم أكن أظن أن الأقدار ستسمح لي يوماً باللقاء بشخص مثلك!"

فابتسم ياقوت لها وقال:

"وأنت بهجتي.. التي لم يحظ بمثلها حتى أبو حيان نفسه!"

فضحكت مريم، ضحكة لعوبة، ساحرة، كإعجاز أنثوي. ليتمكن عندها ياقوت من إدراك نشوة داخلية أشبه بمرجل يغلي، مشتهياً، متمنياً، بإرادة وعزيمة قوية، الكلام في المزيد من الأمور، وتسلق جبال من البساطة، وقص العديد من القصص، وقراءة المزيد من الروايات، وأن يبقى القلب قابلاً للاشتعال كل مرة، وأن يطير ويحلق في السماء كملاك يرى الجمال في كل شيء حوله.

شعر ياقوت بقلبه وكأنه محاط بقطع جليد، ذات برد لا يُقاوم، كإحساس أزلي لا يخمد.

وقال مكملاً حديثه عن أبو حيان:

"وكان هناك وزيران يكرههما لفسادهما ورذائلهما.. وكان يكتب عنهما الكثير ويفضح شرهما... وكان كثيرون يخافون الجلوس في حضرته.. ولم يذكره الكثير من الرحالة والمفكرين العرب في كتاباتهم.. لأنهم كانوا من جماعة السلاطين ودين السلطان.. أولئك الذين يبيعون الكلام بألفاظ منمقة خالية من أي حس حقيقي، ومن أي خيال وإبداع، فقط ليكسبوا أموال وذهب السلطان، ويتميزوا ويتفردوا بذلك عن عامة البشر، فعامة البشر كانوا في نظرهم لا شيء سوى حثالة، ويظهر ذلك جلياً في أشعار المتنبي الذي كان يستحقر العامة والفقراء، ويغتر بنفسه غروراً كأنه الإله، ولم تكوني تستفيدين بشيء مما يكتب إلا بقافية محكمة، ووزن قوي، وألفاظ منمقة رنانة، ولكن خالية من أي فكرة تخدم الإنسان أو تحبه أو تجعلنا نشعر بالسعادة... وكان المتنبي أقذر شاعر رأيت.. وأعتقد أنهم لم يقولوا عن الشعر أنه كلام إبليس إلا بسبب المتنبي وأمثاله..."

فابتسمت مريم، ولمعت عيناها، وهي ترى ياقوت كيف ينفعل أثناء الكلام، ويقول ما بداخله لها ويعبر. وقالت بصوت يكتنفه الحب والإخلاص:

"أحسنت القول.. يا ياقوتي.. لقد قرأت الكثير من شعر المتنبي ولم يعجبني.. أنا يعجبني أمثال أبو نواس بعض الشيء.. وأمثال نزار قباني.. وأمثال أحمد مطر.."

فيبتسم ياقوت ويقول:

"وماذا تحبين من الروائيين؟"

فقالت:

"أحب جبران"

فساد صمت للحظات، قاطعه ياقوت قائلاً:

"أنا لا يعجبني جبران، فهو أرستقراطي، يجلس في برجه العاجي ليصنع حكماً ومواعظ لا أحد يستفيد منها، بل أحب أمثال حنا مينه وخاصة في رواية بقايا صور، ورواية المستنقع، ورواية الثلج يأتي من النافذة، ورواية المصابيح الزرق... مممممم.. وأحب أمثال غابرييل ماركيز وخاصة في رواية مئة عام من العزلة، وأمثال ميلان كونديرا وخاصة في رواية الخلود"

تبتسم مريم، وتقول، بينما تتنهد وترفع رأسها إلى السماء قليلاً، ثم تعيد النظر إلى عيني ياقوت بشغف:

"هل تعلم لماذا أحببتك؟ لأنك في كل يوم وفي كل حديث تبين لي ما لا أراه، وتجعلني أفكر بما لم أفكر به من قبل، فقل لي أكثر، وأخبرني يا ياقوتي..."

ابتسم ياقوت، وتكلم وهو يمسك بيدي مريم بحنان:

"وأنا أيضاً أحببتك.. لأنك تفهميني.. تقبلين بي.. وسط حياة لا تقبل بإنسان كما هو وتجبره على النفاق والتصنع إجباراً.. أحبك.. أكثر من الشمس التي في السماء يا مريم..."

تتنهد مريم بخجل، وتكاد تتوارى برأسها، لكنها تعتز بنفسها مجدداً، ويتبدد الحياء وتعود الثقة، وتقول:

"أثلجت صدري يا ياقوتي..."

ليبتسم ياقوت ابتسامة طفل، يعرف كيف يحب.

وتقول مريم، مغيرة سياق حديث أخجلها:

"حدثني عن ماركيز هذا.. وعن حنا مينه... وعن ذلك الثالث الذي أسميته بونديرا...."

ضحك ياقوت وقال:

"كونديرا... ميلان كونديرا..."

مريم:

"أجل.. حدثني عنهم..."

وأخذ يحدثها فيقول:

"أحب هؤلاء جداً يا مريم.. تسألين لماذا أقول لك لأنهم يكتبون من البيئة الإنسانية نفسها، إنهم لا يكتبون بطريقة مستفزة ومنمقة.. إنهم يكتبون الواقع كما هو.. فحنا مينه كل رواياته عن فقراء أنهكتهم الحياة وتعب السنين.. وهدتهم

الظروف.. وذلتهم النفوس الدنيئة.. ولكنه يكتب بحب.. من قلبه.. كأنه إلى جانبك.. كأنه جارك.. لا كأنه كاتب سلطاني يحادثك من فوق وأنت تقرئين من تحت... أما ماركيز فيأسرك في رواية مئة عام من العزلة.. تشعرين وكأنه يصف الإنسان المجرم، والطبيعة الإجرامية، وكيف يتولد الإجرام في النفس شيئاً فشيئاً، وبسرد طويل ومحكم ومشوق، وخاصة في شخصية الكولونيل أوريليانو بوينديا.. الذي قالت عنه أمه أورسولا في الرواية أنه غير قادر على الحب.. وتحول من شخص يعرف الحياة إلى شخص لا يعرفها.. فقط بسبب الحروب التي شنها وكان قائدها.. وأصبح لا يعنيه شيء أن يقتل الناس بدم بارد.. أما كونديرا.. فهذا الروائي يأسرك بالتفاصيل.. فهو يأتي بأشياء سخيفة ما كنا لنرى فيها عمقاً.. ويجعلها عميقة.. يفصل كل إيماءة وكل حركة جسد وكل تنهيدة وما مغزاها، وببراعة يفصل الجسد البشري، والجنس، والقطط، والعلاقات، والأحاسيس"

ضحكت مريم، من قلبها، وابتسمت ابتسامة تنم عن حب كبير، وقالت وأعينها براقة كشمس ساطعة:

"أحبك أنت وكونديرا.. أنت وماركيز.. أنت ومينه"

فيبتسم ياقوت، ويشعر بقشعريرة جميلة، ويقول:

"وأنا.. أحبك.. أنت وبسمتك.. أنت وروحك.. أنت وقلبك"

الفصل الثامن

مذ أن وصل ياقوت إلى قرية عين الفيجة وحط رحاله فيها فقد دأب على الشغل فيها بشيء ممتع للغاية، مناسب لعقلية شخص يحب أن يكون معلماً أو أستاذاً: لقد عمل في اجتذاب أطفال القرية الصغار من سن الرابعة وحتى الرابع عشرة، فيسليهم بروايات وقصص فانتازية، يقول عنها أهل القرية وخصوصاً أهالي الأطفال أنها قصص معتة، يخترعها ياقوت لكي يُضل الأطفال ويخرب عقولهم، لكن أطفال ياقوت بلغوا من الذكاء أنهم دافعوا عنه مراراً أمام أهاليهم من شدة حبهم له ولقصصه، فهو ما كان يكتفي بالقصص عن العفاريت والجن والغيلان، وعن الأميرات في القصور، وعن مملكة القطط، وعن الأرنب الزير، وعن حكايات المرايا، وعن قصص فرعونية قديمة، ما كان يكتفي بذلك وحسب، بل كان يأتي بأفكار كبيرة إما أدبية أو فنية، ويربطها بزقزقة العصافير، ومواء القطط، ونهيق الحمير، وعجائب امبراطورية الجن التي كان أهلها ذوي آذان طويلة كآذان الخفافيش، وبهذا الشكل فقد كان يمتع الأطفال ويثقفهم في آن واحد، سابراً في ذلك أعماق أرواحهم، مشجعاً، بشغف لا يقاوم، عقولهم على التفكير السليم دون هوادة.

وحين كانت المحبوبة مريم تراقبه كانت تفرح من أعماق قلبها، وتصعد بروحها وعقلها أعالي السماء، فكانت المخيلة، كسحر، كإعجاز، يرتمي في أحضان حكايات

وروايات وأدبيات ياقوت التي يأتي بها من حيث لا يعلمون، وكانت مريم تقول له دوماً، بأعين أجفانها زرقاء شاحبة:

"لقد تعبت عنك.. أنت تعطي الكثير للأطفال... لقد كنت خيراً من ألف أستاذ.. ومرجعاً أكثر من مئة رجل دين..."

وكان يطأطئ رأسه خجلاً ويرد:

"ما هذا إلا شيء أستمتع فيه يا مريم، فالمعلم يحب أن يرى تلميذه يكبر بعقله وروحه وقلبه بسبب ما أعطاه إياه، لعمري إن هذا فيه نشوة سحرية عظيمة"

وذات يوم صرخ أبو جابر في وجه ياقوت، وبدا صوته كصوت ثور:

"لا أراك إلا وتغسل عقولهم.. سيأتي يوم وترى أطفالك بقرون شياطين"

فيبتسم ياقوت ويقول:

"خير من أن تكون أرواحهم أرواح شياطين.. فإن الشكل والمظهر لا يعنيان شيئاً"

وكان أبو جابر ينكس رأسه في الأرض مستعصياً الفهم، عاجزاً الإدراك، ويمضي في حال سبيله وهو يجر حماريه من أجل الحراثة في حقل أبو سامر الذي يقع آخر القرية.

وبذلك، فقد كان ياقوت يجمع قوت يومه بأي شيء يعطيه له الأطفال، فكانوا لا يتوانون عن إعطائه مصروفهم اليومي، متخلّين في ذلك عن شراء البسكوت والشيبس والكولا، تضحية في سبيل حكايات طريفة مسلية.

التضحية كانت هينة، لأن ياقوت كان يجمعهم كل مرة في مكان، وينصب خيمة، ويجلسهم حولها أو فيها، حسب الطقس، ويوزع الشاي وأحياناً يطعمهم أرز وشاكرية ومقلوبة ومجدرة، تأتي بهن مريم من منزلها، فهي الطباخة الماهرة، وبالتالي: فلا ضير لطفل أن يتخلى عن بسكوتة في سبيل حكاية ممتعة لمدة ساعة أو ساعتين، مع صحن مجدرة تشتهيه النفس والمعدة، وكأس شاي حنونة تسيل في المري كترياق يشفي من العلل.

وكانت مريم تبقى إلى جانبهم فقط إذا كانت القعدة في المقبرة، أما حين يصطحبهم ياقوت إلى المغارة أو إلى شجرة السنديان أول القرية، فهي تعجز عن ذلك، تلبية لعمل أبيها في حراسة قبور الموتى.

كان من بين الأطفال الذين يأتون دوماً في طلب حكايات ياقوت طفل وسيم أسمر البشرة إلى أسودها، عيناه خضراوتان، في الصف الرابع الابتدائي، وكان هذا الطفل غاية في النشاط، وغاية في الذكاء، ولم يكن يمل من ياقوت أبداً، وما كانت تنتهي حكاية إلا ويطالب بأخرى، وكان ياقوت يكرمه بتقليل ما يريده منه من مال، فكان يكتفي بأخذ خمس وعشرين ليرة على اليوم كله، مميزاً في ذلك هذا الطفل

الذي اسمه عبد الرحمن عن الجميع، فقد كان يأخذ من الطفل الواحد خمسين ليرة على كل ساعة.

عبد الرحمن يطالب ياقوت دوماً بشيء آخر غير الحكاية، وغير التسلية، فيكرر له كلمة "ثقافة" وكلمة "فن" وكلمة "أدب" حتى صار ياقوت يحادثه عن سقراط نفسه، وعن أبو حيان، وعن حنا مينه. شارحاً لعبد الرحمن مسيرة فيلسوف الإنسانية الأول بنظره: سقراط، الذي أعدم لقوله الحقيقة، أمام المحكمة، ومحاربته الآلهة زيوس غير الموجودة، ومعارضته لكثير من الناس وخاصة السياسيين الفاسدين منهم، وقوله في أوجههم أنهم على باطل، والغريب أن عبد الرحمن كان قادراً على فهم هذه الأمور حتى وهو في هذه السن، وبهذه الحال، فقد ألهب لبّ ياقوت وأثلج صدره، وفتح باب الأمل على مصراعيه أمام تفكيره بأن هناك أطفال واعدون، وهناك مستقبل زاهر، وهناك ثمار لا يطول الأمر حتى تنضج.

ذات يوم، قال ياقوت لعبد الرحمن، بصوت لا يخلو من خشوع:

"وقف سقراط بعزة أمام الملك الذي يلبس ثياب من الذهب، وتاج من الذهب، وحذاء من الذهب، وقال له دون خوف العبارة المشهورة: تكلم حتى أراك"

فوقف عبد الرحمن في لحظة صمت، وسأل مسترسلاً في التفكير:

"ماذا تعني؟ تكلم حتى أراك! يا له من جريء.. هل قالها أمام الملك؟"

وهذا يعني أن عبد الرحمن فهم العبارة، فضحك ياقوت ضحكة منتشية قوية، مفعمة بالسعادة، لشعوره بأن عبد الرحمن استطاع أن يعرف معنى العبارة، فذلك يظهر على عينيه جلياً، وكان عبد الرحمن كثير التساؤل، والحيرة، والشك، مما جعله محبوباً كصديق، وكأخ، عند ياقوت.

قال ياقوت:

"نعم.. لقد قال ذلك دون خوف أمام الملك..."

صرخت طفلة ذات شعر أسود حلزوني:

"مللنا من هذه الحكاية، هات لنا شيئاً عن الغيلان والجن يا ياقوت..."

فيصرخ بقية الأطفال مؤكدين على رغبة الطفلة، فيبتسم ياقوت ويخبر عبد الرحمن بأنه سيكمل حديثه عن سقراط بعد الحكاية، ويشرع عندها بحكاية عن الأرنب الذي حبسته ملكة الجن في قفص لأن أذنه صغيرة ولا تشبه آذانهم، كعقوبة له، وذات يوم يأتي جني طيب يحرر الأرنب من قفصه، ثم يحكم على الجني بالإعدام، لكنه يقول الحقيقة ولا يخاف، يقولها لملكة الجن: إنك ظالمة دكتاتورية، وليس من حق أي كائن أن يسجن كائناً آخر أو أن يظلمه لمجرد اختلافه عنه.

الفصل التاسع

ترى كم في الدنيا من أرواح تتألم ولا تتكلم؟ هل يكون الشعور قاتل للإنسان فعلاً؟ طوبى لجبران الذي قال يوماً: أن قاتل الروح لا تدري به البشر.

هذا العذاب الذي يقيد الروح، ويجعل الدمعة تسيل، من خد جميل وناعم ربما لم يكن يستحق أن يبكي يوماً، ولم يكن يستحق أن يتألم، ولم يكن يستحق إلا أن يُحبّ، وأن يُرعى، وأن يُقدّم له كل بسمة جميلة، وكل كلمة طيبة، وكل حب كبير، وكل اهتمام ورعاية!

يا لخبث الألم! لا يحب أن يختار إلا القلوب الطيبة لكي يتغذى عليها: ترى هل كان بعض البشر محقون حين قالوا أن الطيبة غباء؟

لا وألف لا: إن الطيبة جمال النفس البشرية، حيث تقدر على رؤية كل جمال، ومعرفة سحر الوجود، والشعور بأنبل المشاعر وأرهفها، فلا يعطي الله أحداً قلباً طيباً إلا إن أحبه!

فما أجمل ابتسامة أولئك الطيبين!

مروة، هي فتاة في الواحد والعشرين من عمرها، البنت الوحيدة لأبو جابر الذي اشتهر بقسوته المبالغ فيها، ولم يكن له بنات أخريات ولكن لديه فحلان من صلبه واحد أسماه جابر والثاني أسماه محمد.

كلاهما يعملان في الزراعة ويساعدان والدهما في بعض الأوقات على الفلاحة، أي فلاحة أراضي الفلاحين الذين يدفعون لهم المال مقابل ذلك، وكانا شاطرين جداً في أعمالهما هذه، إلى درجة أنهما أقوى من في عين الفيجة زنداً وعملاً من بين الشباب.

كانت مروة تعيش حياة قاسية للغاية، والدها لم يكن يريدها أن تدرس إطلاقاً، لكنها درست ونجحت في البكالوريا نجاحاً مدوياً، وكانت تريد الالتحاق بطب الأسنان ولكنه مكلف للطالب، ووالدها وأخواها قالا لها أنهما لن يساعداها في شيء بخصوص الدراسة، معتبرين أن الدراسة عار للأنثى، وأن الأنثى لم تخلق لتدرس أو تحقق أي شيء سوى أن تكون ربة بيت، أو أم أسرة كبيرة: وفقاً لتقاليد العائلة القديمة.

مروة هي الوحيدة في كل عائلة أبو جابر، التي استطاعت التمرد ولو قليلاً على أعراف وتقاليد عائلتها، فهي الوحيدة التي درست ونجحت، وهي الآن اختارت اللغة الإنكليزية في الجامعة، بالإضافة إلى عمل تقوم به وهو تطريز الأوشحة والملابس المختلفة لسكان القرية وعمل المكياج بدقة للنساء والصبايا، محققة أرباح تكفيها لتحمل نفقات الدراسة والمواصلات.

كشعلة أمل زائفة، كان حلم مروة، كشمعة لم يكتب لها أن تستمر في الاشتعال.

إن مروة فتاة حسناء، جميلة للغاية، لطيفة وحبابة، ظريفة الكلام طليقة اللسان، أعجوبة في مجلسها، ترتدي الحجاب ممتثلة لأوامر أبيها وأخويها، وتحب أن ترتدي ثياب مبهرجة تأسر القلوب قبل العيون: فكانت تفضل ارتداء الملابس الحمراء الفضفاضة المحتشمة.

كانت تتمنى أن تكون مثل كثيرات من صديقاتها: تُحب علناً فتى أحلامها، وتزيل الحجاب من حياتها، فهي كانت متحررة بطبعها إلى آخر رمق، وكانت تشتهي أن تزور صديقاتها وأن تشاركهن حفلات السمر، لكن العقبة الكبرى كانت أمامها: الرفض من أبيها وأخويها بشكل قاطع.

ضربها أبوها أكثر من مرة، من أجل أشياء سخيفة وتافهة، كالإكثار من حمرة الشفاه، وارتداء أحذية جميلة، واستخدام مواقع التواصل الاجتماعي من فيسبوك وانستغرام.

وأخواها كانا يشاركانه الضرب، والقسوة الكلامية الجارحة، إذ لم يكن يمر أسبوع واحد إلا وتكون هناك مشكلة كبيرة، بلا حل، يفرضها واقع أسرتها اللعين، على روحها البريئة.

كانت تدرس تحت شجرة اللوز، مساء، وتحت فيء أشجار السرو، عند الصباح في الأرض الصغيرة حول منزلهم. كانت مزرعتهم واسعة: هناك بقرة، وقن دجاج. أما خطوط المحاصيل فكانت لها أقسام وكل قسم لا يقل فيه عدد الخطوط عن

عشرين خطاً، يزرع فيهن الفلفل الأخضر والبندورة والخيار والفجل والبصل وغيرها من المحاصيل التي تزرع في مواسمها.

الأرض كانت جميلة، معتنى بها للغاية، وهناك مساطب عدة، ويحلو الجلوس هناك في خربة جذوع أشجار تركت هناك لحفلات الشواء، وكانت مروة تحب الأرض كثيراً، والجلوس فيها والدراسة والقراءة هناك، وكانت تحلم بقراءة الكتب والروايات ولكنها لا تستطيع، بسبب تعصب أهلها، وكانت تشتهي اشتهاء أي مثقف: نفس شيشة على المسطبة، بين الشجيرات والأشجار، مع رواية عالمية، أو كتاب فكري.

هذا حلم مستحيل أمام صخرة الواقع الأليم.

كان وجه مروة مستطيلاً، ذا حسن وهيبة، لكنها هيبة طيبة، لا توحي إلا بحسن السريرة، وصفاء النفس، وكانت روح مروة تشع بهجة رغم آلامها وعذابها. كأن الله ينفخ في الأرواح هذه القوة السحرية الغامضة: لتساعدهن على تقبل الحياة.

مروة الآن، عند هذا العصر، جالسة على الكرسي الأبيض، تحت شجرة لوز جميلة، وهي تقرأ من محاضرة في اللغة الإنكليزية تخص الاحتراف في المضارع المستمر. إلى جانب مروة كأس متة وإبريق يغلي على الغاز الصغير.

تسمع مروة صوت عصافير تغرد، تختلط بأصوات الجداجد.

تأن مروة، من الداخل، وحيدة، كمن نُفي ونُبذ وتُرك، دون أي اهتمام، ودون اكتراث أحد.

حل الليل مع نسمات عليلة، وفي المقبرة، كان شعور ياقوت ومريم غريباً: لم يكونا سعيدين تماما: بسبب تأزم حال القرية والسرقات الأخيرة التي تحصل فيها والجميع لا يعلم الفاعل الحقيقي، ولكنهما يشعران بسعادة غريبة أيضاً، أو بالأحرى نوع من الاطمئنان الروحي.

كانا يشربان القهوة، مشروبهما المفضل.

يشعر ياقوت بأن النسيم العليل يذوب مثل قطع حلوى في روحه، وأن الجو مناسب لثرثرة فلسفية..

تشعر مريم، محبوبته، بأنه سيقول شيئاً، وها هو يقول:

"مريم، أتعلمين، رغم كل قسوة الحياة، فهي جميلة، أجل، هي جميلة رغم ذلك كله، ما أجمل أن يقاسي الإنسان الطيب الحياة بكل فصولها، وأن يتعرض للكثير من الذل والهوان والعار، وأن يتعب ويرهق في النهاية ويظن أن لا وجود لأي حل.. ثم يكتشف في النهاية أن الموضوع كان أبسط من ذلك"

ضحك مريم، ضحكة تبدو وكأنها مقطوعة موسيقية صغيرة جداً، وقالت:

"وماذا يعني ذلك؟"

ابتسم ياقوت، وأكمل:

"يأتي وقت يظن الإنسان فيه أن كل شيء انتهى.. وكل شيء إلى زوال.. وأنه روحه ستفنى ولن تعود أبداً إلى الحياة.. ثم يكتشف أنه فقد بحاجة للانزواء مع نفسه والكلام مع روحه الوحيدة.. وترتيب ما هو مهم وما هو غير مهم.. وسيرى أن نبعاً من السعادة يفيض من داخله.. كأنه اطمئنان أبدي..."

شعرت مريم باطمئنان، وكأن كلمات ياقوت كالترياق الذي يشفي الروح من العلل، وابتسمت، لينم ثغرها الناعم عن حنان ورقة، وقالت:

"صحيح، إن كلامك يلهب المشاعر، ويؤجج الحب في نفسي، أظن يا صوفيان: أن الله خلق النفوس الطيبة قوية، فإنه لا يحمل نفساً فوق وسعها، وروحاً فوق طاقتها، وأعتقد أن الحياة خلقت لهؤلاء الذين يشعرون بكل شيء: وحين تأتيهم خيبة، فإنهم يصبحون أقوى، يبكون ثم يبتسمون، فما أقواهم وما أنبل نفوسهم!"

يبتسم ياقوت مبتهجاً، ويتكلم، بصوت رقيق:

"إن الإنسان كلما كبر عليه أن يجعل عقله يكبر معه، ولكن في المقابل، أن يبقي كلاً من قلبه وروحه كطفلين صغيرين، وهنا نشعر بجمال وسحر الوجود"

الفصل العاشر

كانت هيام بنت أبو طارق في نفس عمر مروة تماماً، وهيام هي بنت عم مروة.

لم تكن ترى مروة في ابنة عمها هيام أي شيء يدل على أنها ابنة عمها فعلاً: لأن الأخيرة كانت تضايقها نفسياً بنظراتها في كل مرة تلتقيان فيها: إذ تبدو نظرات هيام إلى مروة كأنها نظرات شخص يرغب في الانتقام! وهذا كان من أغرب ما يحير مروة، وقد ازداد الأمر عن حده في الآونة الأخيرة.. إذ صارت نظرات هيام إليها كنظرات عقرب يحتار كيف سينقض على الفريسة... أجل... هذا هو الشعور الذي يأكل قلب مروة في هذا الوقت...

إنها تتذكر كل شيء، والله أيضاً يتذكر كل شيء: كل نظرة كراهية، كل نظرة غيرة، كل نظرة حسد عظيم، وغيظ مقيت..

إن الله يعرف كل شيء، وهو عظيم لا ينسى.

وسبحان الله: كيف يشعر البشر، أو بالأحرى كيف يوحي الرب للإنسان بأن يعرف شعور شخص آخر تجاهه، وفي الحقيقة هذا ليس صعباً إطلاقاً: نظرات العيون وحركات الوجه والإيحاءات، كل هذا يحدد الحب من الكراهية... وهل أنا أحبك أم أنني أرغب في أذيتك أو في شيء آخر....

أجل أيها السادة: إن جسم الإنسان في تصميم مبهر للغاية، كأن الإله وضع كل سحره في مخلوقاته: وخاصة الإنسان. فحين تشعر بأن أحداً يبث هالة خوف أو إحباط أو كراهية في أنفاسك أو جسدك فتأكد أنك تشعر بالصواب وأن هذا شعور لم يأت عن عبث، وأن عقلك فسر الأمر كما هو تحديداً.

كانت مروة تتذكر، ويا لهذه الذاكرة التعسة: لحظات حياتها مع هيام، وكانت كل ما تعود بها ذاكرتها إليه هو الكره، والمقت، والغيرة، والإيحاءات غير المباشرة، كأن تقول لها هيام أنا أحبك، ومروة تشعر في قلبها أنها تكرهها وأنها تكذب عليها، وأن الحب يعني الكره، وأن النفاق قناع يحجب نور الشمس.

ما علينا من ذلك.

أفاقت مروة صباح هذا اليوم، يوم الخميس، وذهبت إلى الجامعة، وكانت على علاقة في هذه الفترة مع شاب أحلامها، وكان اسمه أمجد، كان شاباً رهيف الإحساس مثقفاً مثلها.

مروة وهي تنظر من خلف نافذة الحافلة، إلى المناظر الطبيعية: غارقة تماما، بسحر محبوبها أمجد، بنظرة عينيه الغامضتين، ومسحة جبهته المكتنزة، وسحر وجهه الذي يغور في تفاصيل وتضاريس رجولية، وكانت تشعر بمشاعر الحب التي أوصلها إليها أكثر من مرة: يا للحب، ويا للبهجة، ويا لأنوثتي تجاه رجل يعرف كيف يحب، وكيف يرى الحياة، وكيف يحترم أنثاه ويدخلها في جوفه كأنها سجينة في

أضلاع قفصه الصدري... يا للسحر الرباني الذي يكمن في العلاقة الإنسانية.. التي تجمع بين قلبين.. بين روحين.. بين جسدين.. بين عقلين.. ثم ينصهر كل ذلك في نواة واحدة.. مكونة جسداً واحداً من الألوهية والعظمة اللامتناهية، التي تتجسد في الحب، والخلود، والارتفاع إلى أعلى ما يمكن من درجات العشق....

تبتسم مروة، ابتسامة صافية للغاية، بينما كان سائق الحافلة يصرخ:

"من لم يدفع... فليدفع حالاً وإلا سأترككم تذهبون سيراً على الأقدام"

فتذكرت هنا نفسها، أنها لم تدفع بعد، واستحت واحمر خدها الجميل، وقالت:

"عذراً يا عم... هذه أنا... لقد كنت شاردة..."

فابتسم لها السائق من المرآة، وأخذت حقيبتها من جيبها ودفعت.

واسترسلت مجدداً... في النافذة.. وما وراء النافذة.. جبال.. وديان.. سحب.. بيوت صغيرة وأخرى كبيرة.. اللون الأخضر والبني والسماوي.. ثم يظهر الحب فجأة كشعور غامض باللامبالاة بالحياة... وكتوجيه لا يضاهى في العناد والصبر من أجل مواصلة المشوار... أليس غريب ذلك الشعور: فحين يقع الإنسان في الحب.. فإنه يرى الحياة أسهل وألذ، حتى لو كان سيقع في خيبة، وهذا لأن الخيبة الجميلة والسعيدة، لها سحرها الخاص، وأن نعاني من أجل شيء جميل فهذا أشبه

باللامعاناة، وكأننا لا نعاني، بل نعيش، ونستمتع، ونستلذ بالبكاء مثل لذة الضحك تماما، وإذا اغرورقت أعيننا بالدموع، فإن هناك من يمسحها لنا....

بعد المحاضرة الأولى.. التي أعطاها لمروة دكتور تحبه وتراه قدوة لها في هذا المجال.. خرجت مروة من القاعة برفقة زميلاتها... وصارت تتحدث معهن أحاديث متفرقة بخصوص العلامات والمواد ومدى صعوبة المادة ومتى ستكون المذاكرة... وبعد.. فإنها خرجت من الكلية إلى الحديقة.. حيث تجتمع هناك شجيرات وأشجار بشكل هندسي.. وهناك مقعد حيث ستجلس هي ومحبوبها أمجد للمرة الأولى في الحديقة...

إذ أن الجلسات الأولى كانت في كافيتريا الكلية.

والآن، جلسة مع المحبوب، على مقعد خشبي جميل من مقاعد الحديقة، وتحيط بنا زهور وأعشاب وطلاب مثلنا مثلهم وعشاق يشبهوننا تماما... بالنظر إلى هذه الكومة البشرية والطبيعية حول مروة: إنها تشعر تماما بأن الحياة خلقت لأمثال هؤلاء، ولم تخلق أبداً للخانعين الذين يخشون الحياة: يخشون ما هو جميل وما هو مغامر وشجاع، ويخشون أن يتركوا ذواتهم تطير مع النسمات كأنها تحررت من كل قيود الماضي وقيود العادات والتقاليد وقيود المجتمع...

وكأن التحرر تاج على رؤوس العقلاء.

صارت مروة تتخيل في عقلها مدى رقي ذلك: أناس يختلطون ببعضهم البعض بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الدين، أناس يعشقون بعضهم وفقاً للعقلية والروح ودرجة الطيبة، فكل له ما يناسبه، والكل يجلس أينما شاء ويضحك بالطريقة التي يريد وكل في شأنه ولا يؤذي غيره، كم هي جميلة حياة الرقي الإنساني هذه؟

تساءلت مروة في قرارة نفسها مراراً: لقد كنت متمردة على الكثير من الأشياء، فهل أعجز عن التمرد على شيء كهذا؟ وماذا في الحب؟ هل الحب عار؟ هل يجب أن نحب في الخفاء دوماً كأننا نسرق ما هو ليس من حقنا؟

ولماذا الخوف؟ إن الحياة تقتل من يخافها، ولا تعطي إلا من يغامر ويتشجع ويخترق المألوف...

تقدمي يا مروة بخطوات ثابتة... فالحياة لك!

عانقها أمجد بنظراته الحنونة، المتلهفة، المشتاقة إلى حديث بين رجل وأنثى...

بين رجل يعشق بإخلاص وأنثى تعشق بتمرد...

أعطاها كيس فيه علبة عطر.. ومع أنها لم تفتح العلبة، فقد شمت الرائحة من الآن، كأن حواسها كلها رهينة لمحبوبها.

كان أمجد يرتدي بلوزة حمراء، وبنطلون أسود من الكتان، وكان يسرح شعره إلى جانب واحد وهو اليسار، كان شعره متوسط الطول، مسرح بعناية، وكانت ذقنه مشذبة، وملامح وجهه توحي بأنه طليق يتكلم على سليقته، مرح الطبع.

وأخذ يحادثها عن نفس أحاديثه عن كتبه التي قرأها، فأخبرها عن قصائد جلال الدين الرومي في العشق الصوفي، وعن عبقرية أرنست همنغواي في شرح تفاصيل حياة رجال مغامرين يعشقون التمرد والاختلاف والتميز... وعن تشارلز ديكنز الذي يقودنا في رواياته إلى عالم فيه كل شيء... وعن دوستويفيسكي الذي يصف كل شيء جميل وكل شيء مؤلم بعمق مطلق ومشاعر مرهفة.. وعن حنا مينة ملك البساطة الروائية... وعن ممدوح عدوان الذي يفضح وحشية الإنسان... وفي النهاية فقد حدثها الكثير عن المطربة التي يفضلها... كان اسمها سيا... أجل... سيا....

قالت مروة مستغربة:

"سيا.... يعني بحر!"

ابتسم أمجد، وقال:

"وهي بحر في طبقتها الصوتية... إنها نجمة عالمية غربية... أجمل إيقاعات وأجمل طبقة صوتية..."

أجل... هو كان يعرف كل ذلك، لأنه رجل، والرجل، يحق له فعل ما يشاء، وأن يقوم بكل ما يشتهي، وأن يبحر في الثقافة والأدب. فكرت مروة في قرارة نفسها.

أما هي: فلم تكن تعرف ذلك كله، لذلك فقد كانت تسمع منه، وتثار بأحاديثه، وتشتهي أن تتزوج به، ثم تصبح أنثاه، ليسمح لها بفعل كل ما كان يقول لها من أشياء: كل هذه الكتب الممتعة ستقرأها... وستجرب كل تلك الأنواع من الموسيقى "ذات الطبقة الصوتية" التي يتحدث عنها بين الحين والآخر... وستناقشه في ألف سيرة وسيرة... وربما ستتغلب عليه في وقت ما من الأوقات... وتكون المرأة القوية المجربة الشجاعة.... التي يتعلم الرجل نفسه من شجاعتها...

وفجأة، حطت بومة سوداء، عيونها قادمة من جهنم، على غصن الحياة الوردي، لا لشيء... إلا لتنزعه...

لقد شاهدت مروة.. فتاة تنظر إليها من البعيد.. فتاة لا تعرفها إطلاقاً.. لكنها كانت تنظر نظرة التأنيب والتحقيق... وكأنها ستلتهم مروة!

شعرت مروة بالضيق... فقال لها أمجد:

"مروة... حبيبتي.. ما بك؟"

وفجأة اختفت تلك الفتاة عن أنظار مروة... لقد ذهبت..

خافت مروة وانقبض قلبها من تلك النظرات...

وقالت لأمجد:

"هناك فتاة.. لا أعرفها... نظرت إلي في لوم شديد ونظرات مرعبة يا أمجد... إنني خائفة... من هذه الفتاة؟"

أمسك أمجد بيدها بحنان، وقال:

"لا تخافي... إنك تتوهمين.. من شدة خوفك من أهلك.. أنت تتوهمين... وعلى أية حال.. فلن أسمح لأحد بإيذائك..."

وانقلب كل شيء، من سعادة مطلقة بريئة، إلى كراهية وخوف وإحباط.

الفصل الحادي عشر

في هذا اليوم حل ضيف، أو بالأحرى عاد إلى ربوع قريته، شخص يدعى عمار درويش، له كرش كبيرة للغاية، ووجه كبطيخة محمصة، أصلع الشعر تماما، يرتدي البدلة الرسمية، كما يفعل أي دكتور ومحلل استراتيجي يقضي أوقاته صباحاً على شاشات التلفاز ليتحدث عن النضال القومي الوطني، والتدخلات الخارجية في شؤون أمن الوطن، ويناقش أهمية الموقع الاستراتيجي للوطن، وأهمية ثرواته للغزاة والطامعين، وليقول، بأعين تعبر عن زهده أنه لا يجد ما يأكل في يومه من شدة فقره وعوزه، وفي الليل يقضي أوقاته بين أربع حيطان ونوافذ مغلقة تماما عليها برادي مطلية بماء الذهب، ليحتسي الخمر والعرق مع أربعة أو خمسة فتيات نزيهات، ثم يبصق من فمه اللعاب، ويتعرق، منتشياً، بعد أن يشرب خمسة أكواب قهوة، ويأخذ شمة خفيفة من المنشط الجنسي الروسي، ثم يعوي ككلب، ويصيح كديك، مستلذاً، بأنه الزير الوسيم الوحيد.

وكأي سياسي فاسد، فقد وصل عمار درويش إلى منصبه بداية بالتهريب على البغال على حدود سورية الشمالية، ليتطور بعدها إلى السيارات الفان، ثم إلى الشاحنات، متخلصاً من القيود الجمركية والدوريات بنفوذ قوي، فقد أصبحت لديه شركات نقل واستيراد بحرية، وشركة أسماها شركة شمس التجارية، ثم يجلس في مجالس الناس البسطاء، مدعياً أنه عالم العلماء، وفحل الفحول،

وبطل من هذا الزمان.

ليقول لهم بأعين الغربان:

"إن كل ما وصلت إليه هو بجهدي وتعبي.. كونوا مثلي.. عليكم بالنجاح في الحياة.. وإن المستقبل خلق للشاطر... حلال على الشاطر"

ويصمت للحظات ويكمل متكلماً عن مسيرته المهنية:

"لقد بدأت ببيع الزهورات.. ثم بتجارة الليمون والحمضيات.. والزراعة في البيوت الزراعية... ومنها.. شيء فشيء.. بنيت نفسي.."

وهو في الحقيقة لم ينشئ هنغاراً واحداً، ولم يزرع نبتة زهورات واحدة، ولم يتاجر بكيلو ليمون واحد: فكل ما تاجر به هو المهربات التي تتناقلها شاحناته على الحدود، وتتنقل من مخفر شرطة إلى آخر، ومن كلمة هنا، وكلمة هناك.. رشوة هنا ورشوة هناك.. يبتسم له رئيس المخفر ضاحكاً ويعزمه على كأس شاي عجمي، بينما يعطي التعليمات لجنوده بالسماح للشاحنة العظيمة بالمرور.

لقد حل عمار درويش ضيفاً على قريته، مسقط رأسه، اليوم، واستقبله المختار ورئيس المخفر استقبالاً لا يقال عنه إلا أنه استقبال ملوك: فبين الرز من جهة، والورد الجوري من جهة أخرى... وعلى أنغام عازف العود تارة.. وأهازيج جوقة الدربكة والطبل تارة أخرى...

ولا شيء إلا الابتسامات، والتصفيق الحار، من أجل عزيز الوطن، عمار درويش.. الذي يستطيع بلحظة واحدة أن يتصل مع فلان ومع فلان آخر، من أجل تلبية طلب شخص عزيز عليه من القرية، ولكن، بالتأكيد، هذا العزيز، يجب أن يخدمه بالترويج، والنفاق والتهليل، فهذا عصر الذباب لا عصر النحل، فقد كثر البراز وقلت الورود.

كانت حاشية عمار درويش تضم المختار أبو ظريف على اليمين، ورئيس المخفر أبو قاسم على اليسار... ولا ننسى فطحل وجبل، الفئة المهللة الصغرى، والدعم الوحيد في لحظات الشح والبخل بآيات الثناء على عمار في القرية. والآن.. في مضافة المختار...

يجلس عمار بيك، والمختار، ورئيس المخفر، وفطحل وجبل، حول مائدة من لحم الغزال، وخضروات وفواكه مما لذ وطاب، بين لعاب يسيل وعرق غزير.

قال عمار درويش:

"يا هيك الكرم يا بلا... يا أبو ظريف... يا أبو قاسم... بارك الله بكم بهذه المائدة..."

يبتسم أبو قاسم، ويقول:

"هذا واجب يا عمار بيك... كم عمار بيك لدينا.. إنه واحد وحسب... أليس كذلك؟"

ودوّر وجهه بين الجميع منقلاً أنظاره، لكي يسمعهم يقولون أكيد ونعم، وليس لنا إلا عمار بيك.

وقال المختار وهو يفرك شواربه:

"أنت نعم الرجل يا عمار بيك... اجتهدت ووصلت.. تعبت وحققت.."

فيبتسم عمار بيك له (بتواضع).

وبعد لحظة صمت، انكب الجميع على الطعام بتحفيز من أبو ظريف الذي قال:

"هيا يا جماعة الخير... لا تحتاجون عزيمة..."

وأخذت الأسنان تقضم اللحم وتفرمه فرماً، ثم فالعيران كماء زمزم.

يقول عمار بيك:

"ما هي غنائم هذا الشهر...؟"

فيضحك أبو ظريف، وأبو قاسم، ويقول أبو قاسم بصوت متملق:

"لدينا العسل... العسل يا عمار بيك... وبالتأكيد حصتك كبيرة...."

فيضحك عمار بيك وهو يشرب كأس عيران دفعة واحدة، حتى كاد يغص، فضرب أبو ظريف على ظهره بلطف يساعده، وأشربه كأس ماء قائلاً "صحة، اللهم

اجعلها أهون المصائب... سلامتك عمار بيك"

ليبتسم الأخير في تواضع.

ولم يكن ينقص في هذا القرية الآن إلا وجه الغناء والطرب (الأصيل).. ها هو قد وصل بسيارته الفاخرة.. الرانج روفر السوداء..

صفت السيارة أمام شجرة السنديان التي يتربع تحتها ياقوت.. لتنزل منها امرأة حسناء في جمالها.. شقراء الشعر.. ويبدو أنه شعر مصبوغ.. فياقوت يستطيع تمييز الشعر الحقيقي من المصبوغ بنظرة واحدة.. وكانت هذه المرأة في حوالي الخامسة والثلاثين أو أكثر... أخذ ياقوت ينظر إليها في تمعن وهو يحك ذقنه... فإنه يراها لأول مرة... ثم تذكر أن مريم أخبرته في أحاديثها عن القرية أن هناك امرأة غنية وتعمل مطربة اختصاص (تطبيل)... ويبدو من خلال شكل هذه المرأة ومشيتها المغرورة.. أنها هي المرأة التي تحدثت عنها مريم...

وكان مرافقها يمشي خلفها كجبل، وهو يحمل رشاش كلاشنكوف.

فقال ياقوت في نفسه:

"أهذه فنانة أم رئيسة مخفر؟"

وضحك في قرارة نفسه.

ثم وضع عينيه في كتاب "المساكين" لدوستوفيسكي، وأخذ يكمل القراءة والبهجة ترتسم على محياه.

وفجأة سمع صوت عبد الرحمن، تلميذه النجيب، من خلفه، فارتسمت ابتسامة بيضاء ناعمة على ثغر ياقوت فرحاً بقدوم صديقه.

عبد الرحمن:

"مرحباً... لقد أتيت إليك لأنكد عليك وأجعلك تقرأ لي وتحكي لي المزيد من القصص يا ياقوت..."

فضحك ياقوت، ضحكة من القلب، وقال:

"وهل أشعر بالنكد من شخص مثلك.. أنت صديقي يا عبد الرحمن.."

فابتسم عبد الرحمن وقال:

"أحقاً تعتبرني صديقك؟"

وكانت أعينه الخضراء غاية في النقاء والحسن والجمال.

ابتسم ياقوت وقال وهو يعبث بوجه عبد الرحمن بدعابة:

"أكيد... أنت صديقي..."

فتربع عبد الرحمن، وأخذ ياقوت يحكي له عن الرواية التي بين يديه.

إن هذا المهرجان الكبير الذي أقاموه لا يقام لأي فقير، ولأي محتاج، ولأي شحاذ، ولأي إنسان يريد حاجة من الحاجات بالتأكيد: بل هو مهرجان يقام لمن هو قوي، وغني، ولديه النفوذ أو السلطة.

فمع اجتماع كبار أهل القرية: المختار، ورئيس المخفر، وعمار بيك، والمغنية الرائعة المطبلة لينا الركبان، وهي بالمناسبة تلك المرأة صاحبة سيارة الرانج روفر السوداء، وكانت ترتدي كعب عالي وملابس حمراء رسمية وقبعة من ريش نقار الخشب، مزهوة، بحمرة شفاهها الزرقاء، وكان عمار بيك أثناء المهرجان يتطلع إليها بنشوة عارمة محترقة، إلى فخذيها، ساقيها، أنامل رجليها النافرة من خلال الحذائين... وهو يكاد يخرج لسانه من فمه... ولكنه تذكر أنه دكتور ومحلل سياسي وله سمعة وصيت... ولذلك فقد أخفى لسانه جيداً، ووارى حركات شبقه وولعه بالنساء ذوات الشفاه الزرقاء، خلف ابتسامات استراتيجية.

وهذه ليست المحاولة الأولى له مع لينا الركبان.. فقد حاول مراراً أسر قلبها بصلعة شعره، على أساس أن الرجال الصلع دوماً عظماء وأذكياء، وحاول أن يوقعها في شباك كرشه، على أساس أن الكرش يمثل عظمة وفحولة الرجل، غير مدرك أن لينا لا تفضل الكروش ولا الصلعة للرجال، بل هي تفضل الأجسام الغوريلية، ذات العضلات المنفوخة والمفتولة، والشعر المصفوف على نمط السبايكي: أشهر تسريحة شعر على الإطلاق في سورية.

لقد ازدان المهرجان بأصوات الطرب وبالهرج والمرج، واحتل فطحل وجبل ساحة الدبكة... وكان من بين الحضور، أبو جابر، وأبو كمال، وأبو قسورة: ولكن لا يمكننا شملهم على الإطلاق مع حاشية عمار بيك، فهم فقراء وبسطاء، وكانوا رغم عيوبهم، لا يرتقون إلى مرحلة النفاق الأعظم، أو ما تسمى "الشطارة العظمى" التي يتمتع بها أبو ظريف مثلاً، أو أبو قاسم.

فالشطارة تحتاج عقل يحب تحقيق مصلحته، ولو كان على حساب الناس، هذا أولاً، وثانياً فإن عمار بيك لا يوافق على أي شخص أن ينتمي إلى حاشيته، فهذا يحتاج شروطاً ومتطلبات أهمها الخبرة في الحياة: والمقصود هنا بالخبرة أي الخبث والدهاء، وليست الخبرة التي تعرفونها، بالطبع، بل تلك الخبرة التي إذا امتلكها العقرب استطاع أن يتغلب على عقربين أكبر منه، هذا هو المقصود بالضبط.

باختصار: الطيبون لا يمكنهم أن يصبحوا سياسيين.

كان هذا المهرجان يحصل في كل مرة يزور فيها عمار، ولينا، القرية.

دخل ياقوت بصحبة عبد الرحمن للتو إلى ساحة المهرجان.. التي كانت بين ثلاثة بيوت.... في شارع واسع قليلاً، ترى ما هذا المهرجان الغريب الذي ليس فيه أكل ولا شرب ولا أي شيء... والمفروض أن عمار بيك ولينا هما من يتكفلان بمصاريفه، أفلا يصرفان القليل ولو كان النزر على فقراء القرية التي ترعرعوا فيها؟

سأل ياقوت هذا السؤال لعبد الرحمن:

"كيف لا يوجد أي طعام أو شراب؟ على الأقل فليوزعوا الكولا والمشروبات الباردة في هذا الجو الحارق... على الأقل فليشتروا عشر دجاجات ويسلقونها! أليست هذه هي قرية عمار الأم، وقرية لينا الأم، أليسوا هؤلاء أهلهم وناسهم؟ ألم يكبروا ويترعرعوا هنا في أحضان هذين الجبلين.. وفي سفوح هذه الوديان... أولم يشتموا من نفس الهواء الذي يشتم منه أهل قريتهم أنفسهم؟"

ابتسم عبد الرحمن بحزن وقال:

"يا صديقي لو علمنا ما خفي لصمتنا.. فالصمت هو الوحيد الذي يعبر عما نحن فيه..."

فنظر إليه ياقوت نظرة حنان وحب، لأن العقل والفكرة ، هو ما يجعلنا نصادق غيرنا، ونحب غيرنا، أجل يا سادة: الحب ينبع من العقل، ومن الفكرة. لقد أحب ياقوت عبد الرحمن جداً، وشعر بشعور غريب جداً في هذه اللحظة، كنوع من الرغبة في أن يحتضن عبد الرحمن بين ذراعيه، ويحتويه، ويقول له أنت صديقي، وأنت وأنا من نفس الطينة والروح، وأن لا تقلق، ولا تبتئس نفسك، فالدنيا تذل الفقير، تذل الكريم، تذل كل من نفسه عزيزة.

أجل، لقد شعر ياقوت بأن عبد الرحمن يستحق الطعام والشراب أكثر من عمار بيك، وأكثر من لينا، وأكثر من فطحل وجبل... لقد شعر بأن الدنيا ظالمة للغاية.

فقال ياقوت لعبد الرحمن:

"اسمع يا صديقي... ليس كل شيء واضح.. وليس كل شيء يدل على الحقيقة.. وقد تخسر الحقيقة مرات ومرات وقد يسقط الحق.. فعود نفسك على أن الحياة قاسية جداً وغير عادلة"

وبدت هذه الكلمات لعبد الرحمن، مشبعة بالأسى والحزن، بدا له وكأن صداقتهما تتجدد، فالصديق هو من يشارك صديقه حزنه وآلامه، وليس من يشاركه فقط بهجته وفرحه.

ولكن ياقوت، انحنى بظهره حتى خفض رأسه إلى مستوى رأس عبد الرحمن، ونظر في وجهه مباشرة مبتسماً ابتسامة ملائكية، والنور يشع من وجهه، وقال:

"أهم شيء.. أن تلمس النور في داخلك.. يا صديقي"

وداعب ياقوت وجه عبد الرحمن بحب أخوي.

لكن عبد الرحمن شعر بالخجل الشديد، وأبعد ياقوت عنه بطريقة مضحكة، ودخل في ساحة المهرجان وأخذ يرقص مع الحاضرين.. فما كان من ياقوت إلا أن يبتسم ويضحك مراراً وتكراراً، متخيلاً روح عبد الرحمن البهيجة، ونفسه المثيرة، فانقض ياقوت على عبد الرحمن وصار يرقص معه، تلك الرقصة التي نسميها رقصة الدروايش، حيث يدور المرء حول نفسه كأنه مروحة... بينما يرفع يداً في السماء وينزل يداً إلى الأرض... ويبدو جسده ككتلة روحية منسجمة مع الكون ككل، ووحدة متناسقة من الحنان والعاطفة والمجد.

إنها تعني أيضاً: أننا نوزع المحبة على كل الكائنات، دون تحقير أي منها، ونقسم الحب وطاقة الحياة بالتساوي على كل شيء حولنا: الكبير والصغير على حد سواء. واستمر الغناء والطرب، والهرج والمرج، والرقص والفرح، بينما تبكي أرواح الفقراء من الألم، وتحلق أرواح الأغنياء إلى الأعلى مترفعة عنهم، عن آلامهم، عن طموحاتهم، عن أحلامهم، عن مشاعرهم وأحاسيسهم كلها: فالحل الوحيد أمام الغني الفاسد هو تجاهل الفقير المعدم، التجاهل ثم التجاهل، إنها السياسة الدكتاتورية الأبقى، فالبقاء للأقوى، نهاية، وليس للأصلح.

ولكن، وعلى أية حال: يملك الفقير سلاحاً قوياً أشد من أي سلاح يمكن أن يواجه فيه الدنيا، وهو ابتسامته وفرحه وبهجته، والأهم: راحة ضميره.

الفصل الثاني عشر

في هذا المهرجان، وفي هذه اللحظة تماما.. كان عمار بيك مرتفعاً على الأكتاف والناس يهللون له.. عجباً كيف للفقير المغلوب على أمره والمتلاعب به أن يخضع لمن يستبده ويسرق ماله كل يوم وكل لحظة، وعجباً لهذا الفقير كيف لا يكتفي بالخضوع بل إنه يحب مستبده، ويعشقه.. إنها متلازمة ستوكهولم.

أجل.. إن أهل القرية يهللون لعمار بيك.. عمار بيك الذي سرق أراضيهم منذ زمن.. وسرق أموالهم وأحلامهم وطموحاتهم.. متحججاً بأن ذلك شطارة، خافياً ذلك تحت الكرسي..

إن بسماتهم تجاهه سرعان ما تتبدد بعد المهرجانات وبعد فراقهم عنه، وحين يعود كل منهم إلى منزله تتحول تلك البسمات إلى كلمات جارحة في قفاه، ولعنات، وشتائم، وسرعان ما يصبح الأمر حسداً وغيرة حتى أنهم أنفسهم يتمنون لو يكونوا ظالمين بدل أن يكونوا مظلومين.. وأن يكونوا أغنياء مستبدين بدل أن يكونوا فقراء معدمين... وحين تنظر في أعين أهل القرية جميعهم ما عدا قلة قليلة، تشعر وكأنهم يرغبون في التهام بعضهم البعض تعويضاً عن عدم قدرتهم على التهام الغنى والمجد... فالمجد بنظر الفقراء المعدمين الجهلة.. هو الغنى والسرقة ولا شيء غيرهما...

وهناك من الرجال من يتغزلون بلينا.. حتى بالنظرات.. ويهللون لها أيضاً، وربما أكثر من تهليلهم لعمار بيك.. وهناك نسوة يحسدنها جداً ويتمنين لو أنهن في مكانها... ورغم ذلك كله: فهن يهللن لها، وبشكل غريب جداً: حتى تكاد ترى في أعينهن النفاق.

إنه الجحيم من نوع آخر: لو راقبنا الناس في هذا المهرجان العجيب.. لرأينا أن لا أحد يشبه نفسه، ولا أحد هو نفسه، كلهم أشخاص غرباء حتى عن أنفسهم... لكأن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تبحث عن ذاتها ليأسها وعدم قدرتها حتى على الشعور بالذات..

ترى لو نظر الرائي إلى هذا الجمع الغفير الحاشد: فقراء يهللون لغني يستبد بهم... وحاشية الغني تطلق أصوات الصفير وتصفق بحرارة. كان الرائي سيدرك في أعماقه كل شيء.. وسيعلم كم هي النفس الإنسانية رخيصة، وكم هو الإنسان ضعيف ذليل، وإذا لم يرغب في أن يكون ذليلاً فإن لا حل أمامه إلا التسليم.

كان هناك استثناءان فقط في هذا المهرجان: وهما ياقوت وعبد الرحمن.. أجل.. إنهما الوحيدان اللذان يشبهان نفسيهما.. بل إنهما ياقوت وعبد الرحمن فعلاً ولا أحد آخر سواهما..

كل حركة، كل كلمة يقولانها، كل ضحكة، كل بسمة: تعبر عنهما تماما دون زيف أو اصطناع أو ادعاء.

ما أجمل أن يعيش الإنسان على سليقته! وطوبى للبسطاء أصحاب الأنفس النبيلة!

ولكن....

وسط هذا الجمع الحاشد من الناس..

سُمع فجأة صوت فتاة، وكان الصوت ذا نبرة يشبه صوت التنك وهو يضرب على رأسك.. تماما.. هذا هو التشبيه الأنسب لهذه الحالة، وكانت الفتاة قد وقفت وسط الجمع وزأرت كأسد بصوت قوي، فتوقفت المطربة العريقة (لينا) عن الغناء، وتوقف اللعب والهرج والمرج... ونزل عمار بيك عن الأكتاف... وتوقف ياقوت وعبد الرحمن عن الرقص ونظر الجميع إلى الفتاة مندهشين.. راغبين في سماع ما تود قوله...

وكانت هذه الفتاة ذات بشرة بيضاء.. ونظرات كنظرات أفعى، وشخصية قوية وتبدو بنظر ياقوت حقيرة... إن ياقوت يمتلك الحاسة السادسة ولم يرتح إطلاقاً لهذه الفتاة من شكلها...

فشعر في قلبه كأن دبوساً غز وانبثق من الجرح دم، هكذا كان شعور ياقوت الصادق.

قالت الفتاة، وسط أنظار الجميع:

"يا جماعة... عندي خبر سيء لكم جميعاً... وخاصة لصاحب قضية الشرف هذه.. عمي أبو جابر"

وهنا.. شعر أبو جابر بالدهشة.. والخوف صراحة.. وكذلك ابنيه جابر ومحمد فقد نظرا نظرات فضول عارم إلى الفتاة، وكانت هذه الفتاة هي هيام بنت أبو طارق.

قال أبو جابر بصوت مذعور وخائف:

"ماذا هناك يا ابنتي.. لقد شليتي أوصالي.. ما قضية الشرف التي تمسني هذه؟"

قالت هيام وفي صوتها قوة، ونبرة أخرى أشبه بالخبث:

"يا عمي أبو جابر... ابنتك مروة... وصلتني أخبار من صديقتي في الجامعة أنها رأتها مع شاب هناك في الحديقة وكانا يمارسان العشق..."

وهنا... كأن زيتاً صب على النار..

بل إن النار اشتعلت من غير زيت..

وشعر ياقوت كأن صخرة عملاقة هوت على قلبه وحطمته، فقد أتاه كشف سريع لحظي من الله أربك عقله وكيانه، وكان الكشف كله ظلام في ظلام، وشياطين في شياطين، ونزعات إنسانية مثيرة للشفقة تصارع مع نفسها بخبث وحقارة. لقد سالت الدموع من عيني ياقوت، لسبب لم يدري ما هو، لكنه يشعر به.

ارتعب أبو جابر، وتحول وجهه إلى قرص بندورة أحمر، وأما ولديه فاستشاطا غضباً، وقال محمد بصوت محتد:

"ماذا تقولين يا هيام؟ أمتأكدة؟ مروة ما غيرها؟"

فأكدت هيام بصوت لا يخلو من الدهاء:

"نعم... متأكدة... الأخبار موثوقة من صديقتي التي لا تكذب... ولقد تحرينا في الأمر كثيراً قبل أن نقرر ملاحقتها... لم نكن نظن أن الفتاة بهذا السوء..."

صرخ أبو جابر:

"اللعنة عليها... اللعنة... لطخت شرفي في الأرض.. لطخت سمعتي هذه الحقيرة...."

صرخ جابر:

"وأنت يا هيام تعرفين أن الموضوع يمس الشرف ولماذا تقولين ذلك أمام جمع غفير كهذا؟... سأقتل مروة ثم سأقتلك!"

وصرخت هيام:

"ماذا... هذا ما كان ينقص.. ناقص الشرف والأخلاق يعطيني مواعظ عما سأفعله!"

كاد جابر يلتهم الأرض تحت هيام بنظرات الحقد والكراهية، وكان يشعر بجبال من الحقد في داخله، وكذلك محمد الذي كان يشتهي أن يقتل كل الحاضرين... وأن يلتهم هيام التهاماً ثم يحرق أخته مروة...

أما أبو جابر فقد نكس رأسه في الأرض، وبدا عليه أنه انتهى من الداخل نهائياً...

في الحقيقة... لقد أربكت هيام الجو تماما وأخذ الناس في الحديث واللت والعجن والكلام... وأجواء الكراهية الأسرية تغلبت على المهرجان..

صرخ أبو قاسم:

"يا جماعة... دعونا نفهم الموضوع"

وكان ياقوت قد اقتحم الساحة، ودخل من بين الجمع، وقاطع محمد قبل أن يتكلم باتجاه هيام، وقال:

"هل هذا تصرف سليم منك أن تتحدثي عن ابنة عمك بهذا الشكل أمام جمع غفير من الناس...."

وقبل أن يكمل قاطعه محمد بصوت قوي محتد للغاية:

"اخرس أنت... من أول ما أتيت إلى القرية ولم نر الخير على وجهك!"

ياقوت:

"هذا أمر إنساني ولن أسمح لأحد بأذية روح بريئة لا ذنب لها إلا أنها أحبت... بالتأكيد إن مروة لم تكن لتفعل شيئاً سيئاً... إنها ليست خائفة فهي لم تفعل ما هو خاطئ... ولم ترتكب ذنباً..."

صرخ جابر وكاد يهجم على ياقوت:

"قلت لك اخرس... هذا موضوع عائلي يمس شرفنا وإياك والتدخل فيه... أقص يدي إن لم تكن تلك الحقيرة قد مارست معه ال...."

صرخ ياقوت بقوة:

"اخرس... لا تقل ذلك عن اختك... إنها أختك أيها الغبي... أختك... إن قلبها وروحها يجب أن يكونا أهم شيء عندك في العالم..."

وهجم جابر على ياقوت... وكاد يضربه إلا أن جمع من الرجال احتشد حول الطرفين وأبعدا الطرفين عن بعضهما بعد أن تمكن جابر من صفع ياقوت صفعة خفيفة على وجهه (وكانت غايتها أن تكون قوية ولكنها لم تصل)... وصرخ جابر:

"ابتعد عن عائلتنا أيها الوغد.... سأدفن تلك الحقيرة...."

وصرخ ياقوت بقوة:

"يا لك من غبي ماذا ستستفيد... إنها أختك... إنها روح قبل كل شيء... إنها حبك الوحيد يا رجل... أنقذها بدل أن تأتي على ذكر شرفها أمام الناس.... أختك بريئة بالتأكيد وهي ضحية حسد وكراهية...."

صرخت هيام لتلقي بالزيت على النار أكثر "يا حبيبي... بعد أن فضحت نفسها بنفسها وكشفت أمرها ورأيناها بأم أعيننا.. عن أي جسد تتحدث؟"

أخذ ياقوت يسترجع أنفاسه، وكان عبد الرحمن منكب على نفسه يبكي غير قادر على فعل شيء فهو لم يفهم أي شيء مما حدث، ولكنه كان يعرف أن مروة فتاة طيبة وبريئة وذكية، ولا تفعل الخطأ أو ما يمس شرفها بسوء.

كان ياقوت متماسكاً قوياً للغاية، فلم يرف له جفن، ولم يتوقف عن الدفاع عن مروة حتى آخر لحظة كأنها أخته.. فهو كان يعرف عن مروة من مريم، لقد قالت له مريم الكثير عنها بأنها أشطر وأذكى فتاة وأهذب من في القرية... وأكثرهم ثقافة ورغبة في التحرر.. وعن نجاحها الدائم في ما تفعله وتقرره... فهي كانت صديقة مريم منذ الصف الأول... ولم تفترقا إلا حين ذهبت كل منهما في طريق.

بعد صراخ النسوة، وزئير رجال لا يشبهون الرجال، ودفاع شاب شهم عن فتاة بريئة... انتهى الحادث عندما أطلق رئيس المخفر النار في الهواء وطلب من الجميع قسراً الذهاب إلى منازلهم....

وقد سمع ياقوت كلمات كثيرة من هنا وهناك، ولم ترقه تلك الكلمات إطلاقاً، والغريب أن الجميع كان يحرض ولم يكن يحاول حتى أن يهدئ الجو والنزاع... والأغرب أنه وجد أن الناس تستلذ بحرق دم بعضها واللعب ببعضها البعض... وهذا ما كان قد أتاه في الكشف...

فقد قالت المغنية (الأصيلة) لينا وهي توجه كلماتها إلى محمد:

"اسمع... الشرف أهم شيء في الوجود ولا شيء أهم من الشرف... وأنت تعرف ما عليك...."

في الحقيقة، كانت هذه أحقر جملة قيلت في كل الحادثة.

أما عمار بيك فقد قال وفكيه كفكي تمساح:

"أنتم أدرى بما تفعلون...."

موجهاً كلامه إلى عائلة أبو جابر، وإنها لكلمة حقيرة أيضاً.

أما فطحل فقد صرخ وقال وهو يشبك ذراعيه:

"لو كانت أختي لدفنتها تحت قدميّ تطهيراً لدنسها واستعادة لشرفي"

اقترب في هذه اللحظات عبد الرحمن من ياقوت وهو يبكي، وقال له:

"إنني خائف.. خائف يا ياقوت..."

فأخذه ياقوت بين أحضانه، ولم يكن ضعيفاً إطلاقاً، وقال:

"عبد الرحمن.. إياك والتدخل هنا... ابتعد.. هذا أمر خطير عليك... هيا يا صديقي اذهب إلى بيتك..."

فقال عبد الرحمن:

"طيب... أنت.. صديقي.. وأنا صديقك.. ألا يعني هذا أنه يجب علي أن أقف إلى جانبك... خاصة عند الخطر... وإلا كيف أكون صديقك"

لقد قالها وهو يبكي ويشهق ويقهقه.

فمسح ياقوت دمعته، وقال له:

"صديقي... كن قوياً... لا تسمح للريح بأن تهز الجبل في داخلك"

وابتسم بقوة، فمسح عبد الرحمن دموعه، متوعداً ياقوت بالتنفيذ.

وأكمل ياقوت موجهاً كلامه إلى أسرة أبو جابر، وإلى هيام:

"اسمعوا... إياكم والتعرض للفتاة بأذى... إنها روح.. الخالق هو من يحدد ميعاد موتها... أما الحياة فهي لها وحدها... هي أمر يخصها... احذروا واتقوا ربكم واصبروا وفكروا جداً...."

صرخ محمد، وكذلك جابر وهما يهجمان، فأمسك بهما رئيس المخفر، وكذلك مساعديه جميل وفارس....

ووجه رئيس المخفر أنظاره إلى ياقوت يأمره بقسر وإكراه:

"ياقوت اترك الناس وشأنها وعد إلى شغلك... كل شخص يعرف ماذا يفعل وما عليه أن يقوم به..."

وصرخ أبو جابر:

"نعم هيا اذهب... لا نحتاج من يأخذ لنا حقنا..."

ولم يهدأ رئيس المخفر وحاشيته إلا بعد أن أبعدوا ياقوت تماما عن المكان...

فركض ياقوت مسرعاً مع عبد الرحمن لعلهما يصلان إلى منزل مروة ويخبرانها بما حصل لكي تهرب أو تفعل أي شيء....

الفصل الثالث عشر

لقد بدا على وجه ياقوت الانزعاج الشديد بعد أن طرق باب بيت أبو جابر مرات ومرات ولم يأته الرد، إذ يبدو أن المنزل فارغ تماما.. فأبو جابر وولديه لم يأتيا بعد.. وقد استطاع ياقوت وعبد الرحمن أن يسبقانهما إلى هنا، أما مروة... فالله أعلم أين هي... وقد كان قلب ياقوت يخفق بقوة كأنه يتقلب على الجمر.. ووجهه أحمر والأدرينالين يسير بسرعة في كل أنحاء جسده..

قال عبد الرحمن:

"يبدو أنها ما زالت في الجامعة..."

ضرب ياقوت قبضته اليمنى في كفه الأيسر غاضباً.. ثم أخذ يهدئ من روع نفسه شيئاً فشيئاً دون جدوى..

وقال بصوت يشوبه القلق:

"إنني خائف يا عبد الرحمن... خائف عليها... لقد أتاني كشف فظيع.. فظيع جداً... لذلك فإنني لست سعيداً..."

وقد شعر عبد الرحمن بمشاعر صديقه ياقوت: بهذا الألم العظيم الذي لا يمكن أن يخمد، وهذه الأحاسيس المتأججة من العجز عن فعل أي شيء، وقد كانت طيور الحمام تحلق فوق السماء بسرب صغير، حمام أسود وحمام أبيض وحمام

بني.. يتبعثر في رحلته في السماء مشكلاً لوحة فنية، والسماء غير صافية، والجو غائم، وهناك نسيم غير عليل، بل يعل الجسد، ويبكي النفس، ويهد الحيل.

وفجأة، وكوحوش ضارية، وصل أبو جابر وابنيه جابر ومحمد، وأصوات صراخهم وأنفاس حقدهم تلوح في المكان..

وحدقوا في أعين ياقوت وعبد الرحمن بكراهية عابرة، وقال أبو جابر:

"ألا تفهم أنت؟ ابتعد عنا يا أخي أحسن من أن نكسر عظامك أنا وأولادي! هذه قضية تخص العائلة ولا تخصك..."

ياقوت، محاولاً أن يكون ثابت العقل:

"إنني أقف على الطريق.. والطريق مكان عام ملك للشعب.. ولا أعتقد أن الوقوف هنا ممنوع"

فاستفز ذلك أبو جابر وابنيه، لكنهم بقوا واقفين مكانهم، وأخذ أبو جابر يطرق الباب، لعل ابنته في البيت، فتذكر أن لديها جامعة وأنها لن تعود قبل الواحدة ظهراً... والساعة الآن في معصم يده تشير إلى الثانية عشر والنصف...

دخل أبو جابر إلى المنزل وأما ابنيه فكمنا أمام الباب، ينتظران مروة حتى تصل، ويحدقان في عيني ياقوت بكراهية عظيمة، وكأنهما يريدان الانقضاض عليه في

أقرب وقت، وياقوت بقي مكانه كأسد، متوعداً بأنه لن يسمح لأحد بالاقتراب من مروة إلا على جثته.

نظر ياقوت في عبد الرحمن وقال:

"عبد الرحمن.. صديقي... الآن سوف تذهب إلى المنزل.. آسف.. لا يمكنني أن أدعك هنا بعد الآن.. أنت صديقي ووقفت معي حتى الآن بشكل شجاع ورجولي لن أنساه لك في حياتي... وكنت بطلاً... فاذهب الآن يا صديقي... اذهب... وإلا فسأحزن منك إلى الأبد"

ووقف عبد الرحمن ينظر في عيني ياقوت، حزيناً، مشفقاً على هذه الحال التي هو فيها... آه لو أنه أكبر مما هو عليه الآن.. آه لو أنه يملك قوة الكون في هذه اللحظة فيساعد بها ياقوت ومروة...

شعر عبد بالهزيمة، والعجز التام، ونظر إلى ياقوت نظرات أخوية مودعة، مشفقة على الذات، وابتسم له ابتسامة عجيبة، ثم أدار ظهره وذهب منفذاً أوامر أخيه الكبير.

نظر محمد إلى عيني ياقوت يحاول تخويفه، وقال بصوت خشن غليظ:

"اسمع... صدقني لن تجني أي شيء من وقوفك إلى جانبها.. قد تذهب إلى المشفى يا عزيزي.. لا أعتقد أنك ستقدر علي وعلى أخي وعلى أبي في نفس الوقت... كما أنك أعزل من السلاح.."

بقي ياقوت صامتاً، مشيحاً بوجهه عن محمد، كأنه يقول له أنا لا أراك. وهذا الشيء استفز محمد كثيراً، فبقي مغتاظاً وهو يتكئ على الحائط وينتظر. بينما قال جابر، والقسوة في عينيه:

"هذا ليس لعب أولاد صغار.. إنها مسألة شرف وأصحاب القلوب الرقيقة أمثالك لا مكان لهم هنا.. الرقة لا تنفع في كل الأوقات.. القسوة مطلوبة في قضايا الشرف والأمور التي تمس كرامة الرجال"

بقي ياقوت صامتاً، لأنه على ثقة، من أن شخصين مثلهما لن يفهما أي كلمة يقولها، وقد يتهمانه بالزندقة والكفر، وربما بالإلحاد أيضاً وبألف شيء وشيء.. فالمنافق الفاجر يجد أي مبرر لينفد نفسه ويتهم البريء بالذنب..

لقد شعر ياقوت بكراهيته لهذين الشخصين، وهو، الذي لم يكره شخصاً في حياته: ربما لأنه لم يجد هالة من الكراهية والحقد كما هي التي تحيط به الآن: إنها كتل نارية من جهنم.. تنبعث من روحي محمد وجابر..

كما تعلمون: ياقوت لديه الحاسة السادسة، مما يسمح له بمعرفة جوهر الناس من نظرة، فكيف إذا كان إلى جانبهم وهو يشعر بأرواحهم حوله. وكانت الحاسة

السادسة هذه تؤذيه في داخله كثيراً، إلى درجة تسبب له الغثيان والتقيؤ أحياناً.. فالمعرفة خطيرة وخاصة أن تعرف جوهر الناس.

وبعد ثلث ساعة تماما، صفت الحافلة أمام منزل مروة، وكانت المسكينة قد نزلت منها وهي تحمل حقيبتها، وبفستانها الوردي الجميل، وحجابها الأسود المزخرف بأشكال الورود، وحذائها الناعم الأسود. لم تكن مروة بالتأكيد تعرف أي شيء بعد.

ركض ياقوت باتجاهها بينما انقض محمد وجابر من اليمين واليسار ليبعداه...

كان يصرخ:

"اهربي.. مروة.. اهربي.. إنهما سيقتلانك.. هناك من وشى بك بحسد وكراهية.. اهربي..."

وما كان من مروة، التي تشبه قطة صغيرة بريئة إلا أن تقف مذعورة غير مدركة لأي شيء... وصرخت...

بينما الحافلة كانت قد ابتعدت إلى آخر الشارع.

محمد وجابر ضربا ياقوت هنا وهناك، ورغم محاولاته في الخلاص فقد تمكنا من لكمه أكثر من خمسة لكمات قوية، منها على وجهه ومنها على بطنه.

لكنه أخيراً، وبحركة من ساقه اليمنى، تمكن من أن يسقط محمد أرضاً، ثم لكم بقبضة يده اليمنى جابر على وجهه فابتعد جابر متأثراً بالضربة مترين....

وركض ياقوت إلى مروة، التي كانت تصرخ منذ لحظة ببراءة، وقالت:

"ماذا يحدث؟"

فقال ياقوت:

"هيا اهربي معي.. هيا... سوف يقتلونك.. لقد أخبرتهم هيام عن الشاب الذي تحبينه.. وعن علاقتك به..."

فصدمت مروة للغاية، وبدا على وجهها أنها ستقع على الأرض من الذعر والخوف.

فشعر ياقوت بالشفقة تجاهها، شفقة لا مثيل لها، بل إنه لم يشفق على فتاة مثلما أشفق عليها...

وفي هذه اللحظة العصيبة، وقف أبو جابر بعد أن أتى من الباب، وهو يحمل بندقية صيد، ويوجهها نحو مروة وياقوت، وصرخ بقسوة عارمة:

"إياك والهرب يا مروة.. إياك.. يا من لطخت شرف أبيك وأخوتك.. ووضعت رأسي في التراب... ولعنتي شرف العائلة إلى أبد الآبدين"

وتكلمت مروة وهي ترتجف وتبكي، ودموعها تسيل:

"يا أبي.. صدقني إنه كذب.. إنه كذب.. أنا لا أفعل شيئاً خاطئاً.. كان سيخطبني.. ثم إن علاقتي به شريفة ونزيهة ولم نفعل أي شيء... سوى لقاءات عابرة..."

صرخ أبو جابر:

"لعنة الله على روحك...."

صرخ ياقوت:

"إياك والإطلاق... إياك... هذه ابنتك بعد كل شيء... صدقني هذا ذنب عظيم ولن تنفد من عقاب ربك..."

مروة تبكي، ياقوت يهدد، وأبو جابر وولديه يهددان أيضاً.. ولم يكن هناك إلا الأعين الحمراء والعروق المنفوخة والوجوه العابسة...

وفجأة، تمكن جابر ومحمد من إبعاد ياقوت عن مروة... ورغم صراخ ياقوت ومحاولاته، فإنه لم يستطع أن يفلت.. وأخذ أبو جابر مروة من شعرها وصار يضربها ويلقي برأسها على أي حائط يراه... صراخ.. عويل.. بكاء.. روح معذبة تصرخ ولا تجد من يسمعها ومن يحميها... والعجز أكل ياقوت من الداخل حتى لم تعد ترى منه أي فعل... فهو مقيد بسلاسل الكراهية.. وسلاسل القسوة.. وسلاسل العبودية...

وأتى رئيس المخفر أبو قاسم مع جميل وفارس، بشكل فاجأ ياقوت تماما، فابتسم محمد وقال لياقوت باستفزاز:

"لقد اتصلنا بهم منذ ربع ساعة... والآن سيأخذونك ويريحوننا من شرك"

وهجم رئيس المخفر وحاشيته على ياقوت في صورة لم يتوقعها، فقد كان يتوقع على الأقل أن يكترثوا لأمر الفتاة، ولو قليلاً، ولكن الغريب والعجيب أن لا أحد اهتم بالأمر، وكأن ياقوت هو المخطئ والمجرم..

اعتقل أبو قاسم ياقوت... وكان جميل وفارس يساعدانه في جره إلى المخفر.. وياقوت يصرخ:

"أنتم مجرمون.. أنتم لا تعرفون الله... توقفوا.. اتركوني... قلت اتركوني... انظروا إنهم يضربونها وقد يقتلونها... ألا تتقون ربكم؟"

ودون جدوى، فآذان أبو قاسم وجميل وفارس، صم تماما عن أي كلمة. أما قلوبهم فقلوب جيف.

وما زال ياقوت يسمع أصوات عذاب مروة في أذنيه وهي تدق وتكاد تثقب غشاء الطبل بل كأنها تدخل دماغه وتشوي خلاياه وتأكل روحه من الداخل ألف مرة، كموت على قيد الحياة.

وكان عبد الرحمن.. يشاهد عن بعد.. من خلف جذع شجرة، والدموع في عينيه شلال ملائكي...

أجل.. إنني روح خلقتها الله.. ولم يكترث لصوتها أحد.. لدي أحلام مثلي مثل أي إنسان.. عقل مثلي مثل أي فتاة.. روح مثلي مثل أي كائن.. قلب ينبض بين ضلوعي كأي جسد يتحرك.. عشت وحياتي كانت بلا كرامة.. منذ مولدي وأنا أبكي ألف مرة وأموت من الداخل ألف مرة.. ورغم ذلك أكافح وأعبر عن رأيي بصدق وبراءة وعفوية.. دون تصنع أو نفاق..

حلمت أن أقرأ وأن أجلس مرتاحة دون أن يعكر صفو حياتي أحد، ودون أن يتدخل في أمري إنسان... بحجة أنه يحافظ على شرفه...

أجل.. إنني فتاة أحبت أن ترى نفسها كأي أنثى في العالم.. وأن تعتني ببشرتها الجميلة.. وأن تضع المكياج.. وأن تنظر إلى نفسها في المرآة متخيلة حبيبها وفارس أحلامها وهو يضمها ويقول لها "سأحميك.. من كل العالم"...

أجل.. لم أفعل شيئاً سوى أنني حلمت.. واستمريت في الحلم والعمل من أجل تحقيق هذا الحلم.. حلم لا يؤذي روحاً على وجه الأرض، بل يحيي ويبعث الحياة ويبثها في العروق.. فأين الجرم في ما فعلت؟

كل ما في الأمر أنني أحببت، وشعرت، وتركت قلبي يحس بما يريد أن يحس، وتصرفت كتصرف أي أنثى، وأي إنسان...

ها أنا أضرب، باليد التي ربتني وعشت معها في منزل واحد وتحت سقف واحد، ها أنا أرفس، بين أرجل أشخاص أنجبتهم أمي من نفس البطن الذي أنجبتني به...

ها أنا أبكي فمن يسمع... ها أنا أصرخ فمن يشعر..

الدماء تنزف من رأسي.. من فمي.. من أنفي.. من أذني..

روحي تأن، وقلبي ينتفض، ولا شيء أراه أمامي إلا الأقدام والأيادي التي تضرب وتضرب... وأنفاسي تتقطع وأتحشرج.. ولا أسمع شيئاً..

يبدو أنني لن أحقق حلمي الذي أردت: فلن أتزوج بمن أحببت، ولن أكمل دراستي في الجامعة، ولن أضع المكياج مجدداً، ولن أبتسم أمام المرآة وأنا أضحك من قلبي، ولن أقرأ رواية عالمية كما كنت أشتهي منذ زمن بعيد... ولن تكون هناك فتاة تدعى مروة...

وقف أبو جابر وولديه... وهما ينظران في الأرض.. إلى شيء كان منذ لحظات حياة متأججة، فيها شعور وإحساس، وعقل مليء بالطموحات والأحلام.. ولكن هذه الكتلة الآن، لم يعد فيها نبض.. لم يعد فيها الإحساس....

قال محمد مرتاحاً:

"الآن... استعدت شرفي... واستعدنا كرامتنا يا والدي..."

أبو جابر، وهو ينظر إلى السماء، التي تتوعده بلونها الأسود:

"آه... صحيح.. الآن نرتاح ولا يقول أحد عنا أننا بلا شرف..."

لم يدرك أهالي قرية عين الفيجة حتى الآن ذلك الشعور الذي ينبثق من قلوب بريئة وهي تتعرض للموت. وبقي الأهالي منذ سنوات طويلة وحتى الآن محافظين ثابتين، على نفس العادات والتقاليد والأعراف القديمة، متيحين الفرصة لأي شعور متضائل بالحسد والضعف والفشل: أن يقتل أي إنسان قبل أن يكمل الله حياته التي باركها له.

بشعور تشوبه الهزيمة، والخذلان، كان على الفقير أن يأكل الآخرين ونفسه دوماً: متحججاً بالعديد من الأشياء. غير آبه لأي تفكير، ولأي عاطفة جياشة، ولأي كلمة حق، أن تقف وتثبت نفسها وتنزل رحمتها على أي شيء.

لا يمكن لشيء أن يقتل الإنسان كما يفعل الضعف، ليس ضعف الشخصية، ولا ضعف خزينة المال: بل ضعف النفس ودناءتها، فإذا أحب الله نفساً جعلها نفساً طيبة، وإذا كره الله نفسها منحها قلباً من حجر، وبقيت هذه الكلمات، مجرد أسطورة وخرافة عند أهالي قرية عين الفيجة... باستثناء درويشهم ياقوت.. الذي لم يتمكن أحد من معرفة شيء عنه منذ أن ماتت مروة... ومنذ أن أفرج عنه رئيس المخفر.. ولم يستطع حتى صديقه الصدوق عبد الرحمن أن يعرف أين هو...

مريم التي كان قلبها يغلي على النار، لم تستطع فعل أي شيء لترى محبوبها، أو ليطمئن قلبها بمعرفة أي شيء عنه.

وبعد الكثير من الوقت، ربما عمليات هدم وبناء، وترميمات تحتاج إلى عزائم الرجال وأحاسيس الشعراء وحكم الفلاسفة، قد يستطيع الإنسان أن يجد بارقة أمل تنبت ببطء... وتنمو.. حتى تصبح شجرة... ولكن هذا لن يتم إلا إذا أشفق الله على الأرواح والقلوب.. وأعطاها نفحة من الحياة في داخلها لعلها تحيي الزرع قبل أن يموت، وقبل أن يقف المطر، وقبل أن تهر الأوراق وتتكسر الأغصان، وتموت الأشجار، وتسود السماء، وتجرح طيور الحمام والدوري والحجل، وتختفي الشمس وتتوارى خلف الظلام الدامس..

تمت

نبذة عن المؤلّف

الاسم: المهلب مرهج

سوريا

أعمال سابقة:

- جزيرة الموت_ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني